الفصل الأول

التناسب في ترتيب السور

يعد هذا الباب من فرائد الإمام التي لم يسبق إليها المفسرون من قبله على الوجه الذي جاء عليه الباب في «تفسيره»، وإنما هداه بيان القرآن إلى هذا اللون من التناسب المعجز بين السور المتتالية، ومكان كل سورة من السورة السابقة لها، وما بينهما من وشائج تنظم السورة في بيان ما قبلها وتدل على حسن تجاورها وصحة ترتيبها عليها وأنه ليس بالإمكان وضع غيرها موضعها. وقد تخلل التراث الذي بين يديه نصوصًا تحمل مضامين تومئ إلى ما في الباب من خصب وسعة لكنها ظلت ساكنة حتى ضرب الرازي في مجهولها وفتح غيبها بملاحظة عملها في بعض سور القرآن الكريم فكان دليلًا على صحتها وتعميقًا لأصولها فتجاوز بها مستوى الفكرة إلى مساحات أرحب وأغزر في العطاء، فمن ذلك ما ذكره الزمخشري في فضل تفصيل القرآن وتقطيعه سورًا: «التفصيل يسبب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض، وبذلك تتلاحظ المعاني والنظم إلى غير ذلك من الفوائد»[1].

هذا النص يؤكد أن القرآن كلام واحد يتصل بعضه ببعض وأن البسملة الفاصلة بين كل سورة وأخرى ليست حائلًا دون التقاء المعاني بل هي حافز على ملاحظة وجوه الاتصال بين أغراض السور وما بينها من تشاكل وائتلاف ؛ لأن النفس تنشط إذا كان الكلامان مختلفين لعقد الائتلاف وتتبع التشابه وتأنس بذلك الالتقاء أكثر منها لو كان كلامًا واحدًا.

وقد تتبع الإمام الرازي نبع كل سورة في بيان ما قبلها وكيف تولدت منها ونتجت عنها. ولما كان هذا النوع من الإبانة لا تتصوره العقول في كلام البشر ولا تدركه الأفهام في القرآن إلا بعد المحاولة والمزاولة، لم يظهر بصورة مكتملة إلا في الأجزاء الأخيرة من التفسير بعد أن كان تنبيهات وومضات خاطفة هيأت للتأصيل له فيما بعد بأصول محكمة ومعايير ثابتة قوية، وأثار هذا اللون وابتدأه في نفسه حديثه عن الاختلاف بين العلماء حول سورة التوبة والأنفال في كونهما سورة واحدة أو أن كلًا منهما سورة مستقلة بذاتها، فذكر ما قيل في

(١) "البرهان" الزركشي ١/ ٣٣٤،٣٣٥.

ذلك من وجوه وكان منها ما يتعلق بما بين معانيها من تداخل وتعالق، يقول في ذلك: «ختم سورة «الأنفال» بإيجاب أن يوالي المؤمنون بعضهم بعضًا وأن يكونوا منقطعين عن الكفار بالكلية، ثم إنه تعالى صرح بهذا المعنى في قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾[التوبة:١]. فلما كان هذا عين ذلك الكلام وتأكيدًا له وتقريرًا له، لزم وقوع الفاصل بينهما، فكان إيقاع الفاصل بينهما تنبيهًا على كونهما سورتين متغايرتين، وترك كتب «بسم الله الرحمن الرحيم» بينهما تنبيهًا على أن هذا المعنى هو عين ذلك المعنى» [1].

وزاد في موضع آخر بيان الخصوصية التي نزعت بسورة «التوبة» إلى الاستقلال فهي وإن التقت مع «الأنفال» في جانب إلا أنها بيان مقابل لما جاء فيها، فـ«الأنفال» بيان لموالاة الله للمؤمنين وخطاب منه سبحانه بإيجاب أن يوالي المسلمون بعضهم بعضًا ونبهت بفحوى الخطاب على أنه يجب عليهم التبرؤ من الكفار. أما «التوبة» فقد اختلفت جهة الخطاب فجاءت إخبارًا بأن الله يتولى المؤمنين ويتبرأ من المشركين تحذيرًا منه عز وجل، وبني على هذا البيان ذكر التوبة المزيلة لهذا الإثم يقول في ذلك: «والمقصود أنه تعالى أمر في آخر سورة الأنفال المسلمين بأن يوالي بعضهم بعضًا ونبه به على أنه يجب عليهم ألا يوالوا الكفار وأن يتبرءوا منهم، فههنا بين أنه كما يتولى المؤمنين فهو يتبرأ عن المشركين ويلعنهم، وكذلك الرسول، ولذلك أتبعه بذكر التوبة المزيلة للبراءة» [2]. فاختلاف الخطابين نحا بالكلام نحو الاستقلال وأعطى له سمتًا خاصًا مكن لانفراده عن سلك سابقه وإن كان موصولًا به متسقًا معه.

وفي موضوع ثانٍ لفت إلى السرِّ البياني في تقديم سورة «الإسراء» على «الكهف» وحسن الترتيب فيها فانجر القول إلى ذكر التناسب ين مقاصد السورتين يقول: «ذكر التسبيح عندما أخبر أنه أسرى بمحمد ﷺ فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١]. وذكر التحميد عندما قال أنه أنزل الكتاب على محمد ﷺ فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ

(١) "التفسير" ٥/ ٥٢٢.

(٢) السابق ٥/ ٥٢٦.

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف:١]. التسبيح أول الأمر؛ لأنه عبارة عن تنزيه الله عما لا ينبغي وهو إشارة إلى كونه كاملًا في ذاته، والتحميد عبارة عن كونه مكملًا لغيره، ولا شك أن أول الأمر هو كونه كاملًا في ذاته ونهاية الأمر كونه مكملًا لغيره، فلا جرم وقع الابتداء بقولنا: «سبحان الله» ثم ذكر بعده «الحمد لله» تنبيهًا على أن التسبيح مبدأ ومقام التحميد نهاية. إذا عرفت هذا فنقول: ذكر عند الإسراء لفظ التسبيح وعند إنزال الكتاب لفظ التحميد، وهذا تنبيه على أن الإسراء به أول درجات كماله وإنزال الكتاب غاية درجات كماله» [1].

وفي سوى هذين الموضعين تختفي الإشارة إلى التعالق بين السور بعضها ببعض ولا تظهر إلا عند عناصر يحتاج فهمها إلى استحضار ما قبلها للكشف عن نواحي الإجمال فيها، كما في بيان المراد من لفظة: «الضالين» في سورة «الفاتحة» فيتجاوز المعنى الوضعي بإجرائها في سياق نظائرها في سورة أخرى. فقد تتبع الأصناف الثلاثة الواردة في سورة «الفاتحة» في سورة «البقرة» فوجد أنها تحتمل معنى المنافقين «وذلك لأنه تعالى بدأ بذكر المؤمنين والثناء عليهم في خمس آيات من أول «البقرة»، ثم أتبعه بذكر الكفار وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[البقرة:٦] ثم أتبعه بذكر المنافقين وهو قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا﴾ [البقرة:٨] فكذا ههنا بدأ بذكر المؤمنين وهو قوله: ﴿أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ثم أتبعه بذكر الكفار وهو قوله: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧] ثم أتبعه بذكر المنافقين وهو قوله: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[2]. فحمل الإجمال في بعض ألفاظ سورة «الفاتحة» على السورة التالية لها وفصل دلالتها بردها إليها.

وأيضًا وقوفه عند تقديم السؤال عن الكيفية في سورة «طه» يقول: «حكى عنه في هذه السورة أنه قال: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾[طه:٤٩]. وقال في سورة «الشعراء» ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٢٣]. فالسؤال ههنا بـ «من» وهو عن الكيفية، وفي سورة «الشعراء» بـ«ما» وهو عن الماهية، وهما سؤالان مختلفان والواقعة واحدة والأقرب أن يقال: سؤال «من»

(١) "التفسير" ٧/ ٤٢١.

(٢) السابق ١/ ٢٢٣.

كان مقدمًا على سؤال «ما»؛ لأنه كان يقول: إني أنا الله والرب. فقال: فمن ربكما؟ فلما أقام موسى الدلالة على الوجود وعرف أنه لا يمكنه أن يقاومه في هذا المقام؛ لظهوره وجلائه عدل إلى المقام الثاني وهو طلب الماهية، وهذا أيضًا مما ينبه على أنه كان عالمًا بالله؛ لأنه ترك المنازعة في هذا المقام لعلمه بغاية ظهوره وشرع في المقام الصعب لأن العلم بماهية الله تعالى غير حاصل للبشر» [1].

فتقديم السؤال بـ «من» اقتضاه حال فرعون ابتداء قبل إقامة البينة فجاء السؤال عن الكيفية، فلما تمكن في نفسه قوة دلائل موسى ولم يستطع منازعته حاول تعجيزه بما لا يحيط بعلمه البشر فسأله عن الماهية. فالتقديم والتأخير يلتفت إليه في الجملة الواحدة أما ملاحظته فيما بين كلام متباعد فيندر التنبه إلى ما يترتب عليه من معانٍ. وكأن الخصوصيات التي تدرس في الجملة الواحدة قائمة في نظم القرآن بأكمله فتقدم سورة على أخرى رعاية لتلك الخصوصيات والأحوال.

وبهذا الفقه يكشف عن المدى الذي حازه نظم القرآن حتى أصبح الكتاب على تعدد سوره واختلاف مقاصده كالسورة الواحدة يراعى فيه اتساق العناصر اللغوية وائتلاف الأغراض فلا توضع فيه عبارة إلا باعتبارات تلتئم فيها مع نظائرها في الكتاب.

والرازي يحلل مباني كل سورة في ضوء سابقتها فيلج بالقارئ إلى مسارب مجهولة ومطارح بعيدة امتدت بالدرس البلاغي إلى أفق أرحب من حدود نظم الجملة إلى النظم بمفهومه الأوسع؛ لينتظم جميع ما يصدر عن المتكلم وجعله سياقًا واحدًا ونسقًا متفقًا يرد بعضه على بعض.

وأبعد من ذلك رده التغيرات في استعمال الصيغ الصرفية للفظة الواحدة واختلافها في السور المتتالية إلى حسن الترتيب ورعايته، فيقدم الأصل في السورة التي هي أصل لما بعدها كما في لفظة «معدودة» فقد ذكر أنها جاءت في «البقرة» بزنة ثم جاءت في «آل عمران»بزنة

(١) "التفسير" ٨/ ٥٧.

أخرى، يقول فيها: «ذكر ههنا: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ [البقرة:٨٠]. وفي «آل عمران»: ﴿ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾[آل عمران:٢٤]. «ولقائل أن يقول: لم كان الأولى معدودة والثانية معدودات والموصوف في المكانين موصوف واحد وهو ﴿ أَيَّامًا ﴾ ؟ والجواب: أن الاسم إن كان مذكرًا فالأصل في صفة جمعه التاء، يقال: كوز وكيزان مكسورة... وإن كان مؤنثًا كان الأصل في صفة جمعه الألف والتاء يقال: جرة وجرار مكسورات... إلا أنه قد يوجد الجمع بالألف والتاء فيما واحده مذكر في بعض الصور نادرًا نحو حمام وحمامات... وعلى هذا ورد في قوله تعالى: ﴿ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ ...فالله تعالى تكلم في سورة «البقرة» بما هو الأصل وهو قوله: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ وفي «آل عمران» بما هو فرع »[1].

وعند سورة «محمد» تتخذ الدراسة مسارًا واضحًا وتتحد العلاقة بصورة جلية تتجاوز الاستدعاء في التحليل إلى التدقيق والتفتيش عن روابط واصلة بين السورتين وتدرج في الكشف عن وجود انتساب السور بعضها ببعض، فذكر بعض الوجوه دون بعض فنبه أولًا على أظهرها وهو التعلق بين أول السورة وآخر السورة التي قبلها فنبه في سورة «محمد» على هذا الوجه دون أن يذكر ما بين مقاصدهما من تناسب واستمر في ذلك إلى سورة «الذاريات» وزاد فيها تنبيهًا خفيًّا على اتصال المقاصد بين السورتين، وجاء هذا الوجه عرضًا حيث قال: «أول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها، وذلك لأنه تعالى لما بين الحشر بدلائله وقال: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾[ق:٤٤]. ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ [ق:٤٥]. إشارة إلى إصرارهم على الكفر بعد إقامة البرهان وتلاوة القرآن عليهم لم يبق إلا اليمين فقال: ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾[الذاريات:١-٥] [2].

(١) "التفسير" ١/ ٥٦٧.

(٢) السابق ١٠/ ١٥٩.

فآخر سورة «ق» استحضر ما انعقد عليه من معانٍ ومقاصد فأشار إليها وقررها، فالسورة بينت الحشر وأقامت عليه البراهين والأدلة القاطعة للظنون وجاءت الخاتمة ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖ﴾ لتؤكد إصرارهم على الكفر وتلبيس ما لا يلتبس، ثم جاءت «الذاريات» تكميلًا للاحتجاج وتقريرًا له باليمين بعد البرهان. وكأن هذه الإلماحة فتحت للإمام نافذة على علاقات المقاصد بين السور، فتتبعها فيما بعد بين السور المتتابعة ونبه على المعاني الكلية الناظمة لما تجاور فنجد في سورة «الطور» يذكر أن وجه المناسبة بينها وبين ما قبلها أي الذاريات.. «من حيث الافتتاح وبيان الحشر فيهما»[1].

ثم أخذت المناسبات من سورة «الرحمن» تتخذ عمقًا وبعدًا تجاوز المعنى الكلي إلى مضامين تدق وتخفى مما استلزم معه التفتيش في عناصر السورة السابقة وجس زواياها ومكاشفة بواطنها للكشف عن العلاقات والنسب المؤلفة بين ما اختلف من السورتين والمنبه على سبب تجاورهما واقترانهما، ولما وقعت تلك السورة تالية لما قبلها وبهذا الوعي تعمق هذا المبحث وقويت أركانه؛ لأنه يستند على أسس ومعايير ملموسة يشار إليها فقد ذكر أن المناسبة بين سورة الرحمن والقمر من وجهين: «أحدهما:أن الله تعالى افتتح السورة المتقدمة بذكر معجزة تدل على العزة والجبروت والهيبة وهو انشقاق القمر.. وافتتح هذه السورة بذكر معجزة تدل على الرحمة والرحموت وهو القرآن الكريم..، ثانيهما: أنه تعالى ذكر في السورة المتقدمة: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ غير مرة، وذكر في السورة ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مرة بعد مرة لما بينا أن تلك السورة سورة إظهار الهيبة، وهذه سورة إظهار الرحمة»[2].

فهو يجعل سورة «الرحمن» معنى مقابلًا لما جاء في سورة «القمر»، فـ«القمر» مدارها على إثبات معجزة تدل على الهيبة والجبروت فجاءت آيات «الرحمن» بمعنى مقابل لذلك وهو إثبات الدلائل بذكر معجزة تدل على الرحمة فهما معنيان يقرران غرضًا كليًّا يتجاذبانه تارة

(١) السابق ١٠/ ١٩٨.

(٢) "التفسير" ١٠/ ٣٣٥.

بالوعيد وأخرى بالوعد، وهذا منهج عام في ترتيب آيات القرآن فحيثما ذكر الوعيد أردفه بالوعد، فامتد بها إلى ما بين السورتين، فقارب بذلك بينهما وبعث التناسب بين أغراضهما بإجرائها على ذلك المنهج في وضع المعاني وترتيبها.

فاستقام له الوصل ووضح ما بينهما من تعالق وتشابه بعد ظاهر يوهم بالاختلاف والتدابر، وطفقت الأساليب بعد هذه الوشيجة تلتقي وتتعالق مع عناصر السورة السابقة وتتقاطع معها، فوجه حذف المفعول الثاني في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[الرحمن:٢] بما يلائم المعنى المقابل لسورة «القمر» يقول فيها: «قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ لابد له من مفعول ثانٍ فما ذلك ؟ نقول: الجواب عنه.. علم بمعنى جعله علامة أي هو علامة النبوة ومعجزة، وهذا يناسب قوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾[القمر:١] على ما بينا أنه ذكر في أول تلك السورة معجزة من باب الهيئة وهو أنه شق ما لا يشقه أحد غيره، وذكر في هذه السورة معجزة من باب الرحمة، وهو أنه نشر من العلوم ما لا ينشره غيره، وهو ما في القرآن»[1].

وأيضًا تغير الإسناد في قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ونزوعه عن التكلم الذي غلّب في سورة القمر فـ «قال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾[القمر:٢٣] و ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ﴾ [القمر:٣٣] وقال: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾[القمر:٤٢] وقال: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُم﴾ وقال: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ «كلها بالاستناد إلى ضمير المتكلم حيث كان ذلك للتخويف فالله تعالى أعظم من أن يخشى فلو قال: أخذهم القادر أو المهلك لما كان في التعظيم مثل قوله: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُمْ﴾ وهذا كما أن المشهور بالقوة يقول: أنا الذي تعرفني فيكون في إثبات الوعيد فوق قوله: أنا المعذب، فلما كان الإسناد إلى النفس مستعملًا في تلك السورة عند الإهلاك والتعذيب ذكر في هذه السورة عند باب الرحمة لفظ يزيل الهيبة وهو لفظ الرب، فكأنه تعالى قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وهو رباكما»[2].

---

(١) السابق ١٠/ ٣٣٧.

(٢) "التفسير" ١٠/ ٣٤٧.

وبهذا يقوي الإمام ما ابتدأه حول ترتيب سورة «الرحمن» على ما قبلها واقترانها بها من خلال أثر التقابل على مكونات السورة وملاحظة ما يعتري أساليبها من توجيهات أفادتها من عطفها على سابقتها وهو ملحظ دقيق في تحليل أساليب السور المتلاحقة.

وقد فتح للرازي هذا الباب ولعه الشديد بالتفتيش عن علائق الائتلاف الوادعة في قوالب الكلم، وملاحظة منازل بعضها من بعض، فتتبع قنواتها فيما بين سور القرآن ومنزلة كل سورة ومكانها من سابقتها، ثم تجاوز ذلك في بعض المواضع إلى الكشف عن المناسبة في كل ما تفرع عن منظومة القرآن وانسل بيانه من بيانه، كما نجد في تحليله لدلالات الذكر المشهور: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم». وتفصيل معانيه، وتصوير النمو الدلالي الذي تكتنزه هذه المفردات بردها إلى أصولها في القرآن فحركها نحو البيان المتنامي، فترتيب مفردات الذكر متفرع عن مراتب الأسماء الخمسة الواردة في سورة «الفاتحة» يقول في ذلك: «فقولنا: الله مبدأ لقولنا: سبحان الله، وقولنا: رب مبدأ لقولنا: الحمد لله، وقولنا: الرحمن مبدأ لقولنا: لا إله إلا الله، فإن قولنا: لا إله إلا الله إنما يليق بمن يحصل له كمال القدرة وكمال الرحمة وذلك هو الرحمن. وقولنا: الرحيم: مبدأ لقولنا: الله أكبر ومعناه أنه أكبر من ألا يرحم عباده الضعفاء. وقولنا: مالك يوم الدين مبدأ لقولنا: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم؛ لأن الملك والمالك هو الذي لا يقدر عبيده على أن يعملوا شيئًا على خلاف إرادته والله أعلم»[1].

فكأن هذه الأذكار حادثة عن هذه الأسماء ومتدفقة من تحت بيانها، فالله استلزم تعظيمه وتنزيهه بالتسبيح، والرب اقتضى حمدًا للإنعام والتربية فكان التحميد، وهكذا في جميع ما ذكر يتمكن الذكر بترتيبه وتفريعه على تلك الأسماء. وقد أحسن الإمام حينما جعل الأسماء في سورة «الفاتحة» مبادئ وأصولًا شكلت مفردات الذكر وقوت دلالته وضاعفت بيانه، ونبهت على حسن تجاورها وانتظامها فنقلتها من كونها سرد ألفاظ إلى بيان متكامل.

---

(١) "التفسير" ١/ ٢٤٣.

وبذلك أبعد الشأو وتجاوز مساحة الجدل والخلاف حول كون الترتيب توقيفًا أو اجتهادًا[1] إلى ما يئول إليه النظر والفحص لأسرار الترتيب والاقتران بين السور فمتى تكاثرت الدقائق ولطفت النكات دلَّ على أن وراء ذلك إعجازًا إلهيًّا لا يصل إليه اجتهاد المجتهدين في إدراك الوشائج الخفية في لحمة السور فلا يند موضع سورة في منظومة ما قبلها ؛ لذلك لم يكتف بتحقيق التشابه بأي وجه من الوجوه الظاهرة كاشتراكهما في مكان النزول أو تجانسهما في الأغراض العامة، وإنما توغل في عمق المقاصد وعني بما خلف الكلام من تشابه وائتلاف وفحص لمعاني القرآن وأصوله ثم تتبع ذلك تحت كل لفظة وعبارة لأن «القرآن كله كالسورة الواحدة و الآية الواحدة يصدق بعضه بعضًا ويبين بعضه معنى بعض »[2] فكشف بهذا عن التآخي بين سور القرآن وانتساب بعضه إلى بعض ورد كل سورة إلى أصولها في سابقتها، فالسورة تجري فيها مقاصد ما قبلها وتندس في أغراضها وتمتزج بها وتداخل معانيها فهي بناء على ما قبلها وبيان لها.

وغاية هذا الفصل تكمن في معرفة نهج الرازي وتحليله للتناسب في ترتيب السور ووجه تعلق كل سورة بسابقتها، وغالبًا ما ينيطها بالمقاصد فينبه على مجرى السورة في محيط ما قبلها والمسارات الدلالية السابقة التي ترفدها وتصب فيها، وتشكلت دراسته للعلاقات في ثلاثة مستويات هي كالآتي:

أولًا: التناسب بين أول السورة وآخر ما قبلها.

ثانيًا: التناسب بين مقاصد السورة و السورة السابقة.

ثالثًا: تناسب السورة مع أكثر من سورة.

وسنقف عند كل مستوى بالتحليل والاستشهاد.

---

(١) ينظر : "البرهان" الزركشي ١/ ٦٤.

(٢) " التفسير " ١١/ ٢٩٥.

أولًا: التناسب بين أول السورة وآخر ما قبلها

وهذا الضرب أكد فيه الإمام على أن التناسب بين السور تضبطه علاقات محكمة، وأن الالتقاء عند المقاصد لا يعني الانفصال التام بين نظم الجمل وإنما يتحدر الكلام ويظل متصلًا يبنى بعضه على بعض، فإذا قدمت سورة على أخرى اختل النظام وفسد الكلام، نبه على ذلك قبله ابن الأنباري حيث قال: «فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف كله عن النبي ﷺ، فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم الآيات»[1].

وتأمل قوله: «فقد أفسد نظم الآيات»ولم يقل أفسد نظم القرآن؛ لأن المعتبر عنده أن رأس كل سورة متعلق بفاصلة خاتمة ما قبلها، فإذا وضعت سورة أخرى مكانها اختل النظام وعريت عن الفائدة التي توشتها بحسن تجاورها مع ما قبلها وذلك لأن آخر كل سورة يحمل تنبيهات تحيل إلى مقاصد تبنى وتركب عليها السورة التالية، ومتى وضعنا غيرها مكانها بترنا تلك التنبيهات وأصبحت فجوة بين بيانها وبيان ما قبلها، فكل سورة تحمل أمشاجًا من سابقتها تتداخل مع مكوناتها وإن صورها النظم بهيئة جديدة وصورة أخرى إلا أنه تظل هناك قسمات وملامح تنسبها إلى أصولها وتنادي على ما بينهما من تشابه وتقارب. وأحيانًا تكون الصلة ظاهرة وذلك بتكرار ألفاظ من مقطع السورة في مطلع ما بعدها وهذا قريب لم يقف عنده الإمام إلا في سور معدودة، ذكر ذلك في تحليله لسورة «الطور» حيث قال فيها: «وأول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها؛ لأن في آخرها قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات: ٦٠] . وهذه السورة في أولها ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الطور: ١١] . وفي آخر تلك قال: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٩] إشارة إلى العذاب، وقال ههنا: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ [الطور: ٧] [2].

وأيضًا مطلع سورة «القمر» «مناسب لآخر ما قبلها، وهو قوله: ﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴾

---

(١) "البرهان" الزركشي ١/ ٣٢٩.

(٢) "التفسير" ١٠/ ١٩٨.

فكأنه أعاد ذلك مع الدليل، وقال قلت: «أزفت الأزفة»وهو حق، إذا انشق القمر»[1].

فكأن ما بين قوله: ﴿ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴾ و قوله: ﴿ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾«استطراد أستأنف بعده الكلام لإشباع ذلك المعنى وتحقيقه مع الدليل.

وأكثر ما عني به التأمل في أحوال الكلام، فيتدبر جملة المطلع يبحث فيها عن تميمة تشي بمعانٍ تلتقي فيها مع مقطع سابقتها، أو عن جهة جامعة بينهما وما انداح فيهما من معانٍ تشربتها من تلك الجملة فـ «يحدد الخيط الرفيع الغائر في ضمير الكلام، فيجمع أوله وآخره، وهل انخرط في هذا الخيط حبات من أجناس متباعدة وهل وقع هذا البعيد في سياقه موقع القريب المأنوس فقبله السياق وتشربه النص»[2]. فضبط بهذا صلات الجمل في سياقاتها المتباعدة برد كل جملة إلى أصلها وجذرها المتفرعة عنه، والتنبيه على موقعها في بيان ما قبلها سواء بطريق العبارة أو الفحوى واللزوم.

فمطلع سورة «محمد» ﷺ ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد: ١] «مناسب لآخر السورة المتقدمة، فإن آخرها قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [الأحقاف: ٣٥] .فإن قال قائل: كيف يهلك الفاسق وله أعمال صالحة كإطعام الطعام وصلة الأرحام وغير ذلك ؟ مما لا يخلو عنه الإنسان في طول عمره فيكون في إهلاكه إهدار عمله، وقد قال الله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة:٧] وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾أي لم يبق لهم عمل ولم يوجد فلم يمتنع الإهلاك»[3].

فالعموم في جملة ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ أثار في النفس وسوسة خفية وهاجسًا ملحًّا حول مصير حسنات الفاسق ومآل صالح الأعمال التي كان يعمل من إطعام

(١)"التفسير" ١٠/ ٢٨٨ ، وينظر : ١٠/ ٢٣١.

(٢) " دلالات التراكيب " دكتور: محمد أبو موسى ص ٢٦٨.

(٣) "التفسير" ١٠/ ٣٢.

وصلة، وسكتت السورة عند هذا المقطع الحافل بالهواجس المليء بالتوقعات، فجاءت السورة التالية لها مركبة على دلالتها ومترتبة على بيانها، وأعني بتركيبها على دلالة ما قبلها كونها جوابًا على تساؤل همست به الجملة السابقة، وبيانًا لمصير أعمالهم وأنها إلى الضلال والخسران، وأما كونها ترتيبًا على بيانها فمجيئها بعد الاستفهام تحقيقًا في صورة ما وقع وانقضى أمره.

فبناء جملة الافتتاح في سورة «محمد» جاء متسقًا مع مقطع «الأحقاف» داخلًا في نسيجه متحدرًا من لغته، وقد نبه على ذلك الإمام في قوله: «أي لم يبق لهم عمل ولم يوجد فلم يمتنع الإهلاك». فالإمام يدخل عدم امتناع الإهلاك في حيز جملة الافتتاح وهو معنى جرى في محيط السورة السابقة، فلم يجعل ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إخبارًا مقطوعًا عما همّ به الاستفهام، وإنما هي إشباع لحاجة الهاجس النفسي في مقطع «الأحقاف».

وأحيانًا تتضمن الخاتمة قضايا كلية فتأتي جملة الافتتاح في السورة التالية بمعنى جزئي يقع موقع الاستدلال على ذلك المعنى الكلي كما في تحليله للمناسبة بين أول الطلاق وآخر «التغابن» يقول فيها: «فلأنه تعالى أشار في آخر تلك السورة إلى كمال علمه بقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ [التغابن:١٨]. وفي أول هذه السورة إلى كمال علمه بمصالح النساء والأحكام المخصوصة بطلاقهن، فكأنه بين ذلك الكلي بهذه الجزئيات»[1].

وقد زاد عليه الغرناطي بيان سبب تخصيص ذلك الكلي بأحكام النساء دون غيرها مما هو داخل في محيط كمال علمه سبحانه، وذلك لأنه «لما ختمت «التغابن» بأنه تعالى شكور حليم عزيز حكيم مع تمام العلم وشمول القدرة، بعد التحذير من النساء بالعداوة، وكانت العداوة تجر إلى الفراق افتتح هذه بزم الأنفس عند ثوران الحظوظ بزمام التقوى»[2].

وأخرى يكون أول السورة تفصيلًا وإشباعًا لآخر ما قبلها كما في سورة «الرحمن»، يقول

---

(١) "التفسير" ١٠/ ٥٥٨.

(٢) "البرهان في ترتيب سور القرآن" ص ٣٣٩

في ذلك: «أول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها حيث قال في آخر تلك السورة ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٥٥]. والاقتدار إشارة إلى الهيبة والعظمة، وقال ههنا: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرحمن:١]. أي عزيز شديد منتقم مقتدر بالنسبة إلى الكفار والفجار، رحمن منعم غافر للأبرار»[١].

فالملك في آخر «القمر» يكتنفه أجواء السياق وما فيها من دلالة الجبروت والانتقام؛ لأن قوله: ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ قيدت دلالته مما يداخلها من معانٍ أخرى، فجرد دلالتها بما يناسب مقصد السورة وهو إظهار الهيبة «لأن القربة من الملوك لذيذة كلما كان الملك أشد اقتدارًا كان المقترب منه أشد التذاذًا، وفيه إشارة إلى مخالفة معنى القرب منه من معنى القرب من الملوك، فإن الملوك يقربون من يكون ممن يحبونه وممن يرهبونه؛ مخافة أن يعصوا عليه وينحازوا إلى عدوه فيغلبونه، والله تعالى ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ لا يقرب أحد إلا بفضله»[٢].

وكمال الملك لا يكون إلا مع الفضل والإنعام فجاءت سورة «الرحمن» مكملة لذلك، وكان اختيار اسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ تهيئةً وتلطفًا في الانتقال من جو سورة «القمر» وما فيه من المبالغة في الوعيد بذكر آياته الدالة على جبروته وعظيم اقتداره إلى سياق الإنعام والرحمة فأزال بذلك التباعد والتنافر، فقرر معاني الهيبة وجسر لمعاني الرحمة.

بينما يجعل البقاعي سورة «الرحمن» تجاذب مقطعين من آخر «القمر» وأن ما فيها من معانٍ تفصيل وتفريع وتحليل لها يقول: «ولما ختم سبحانه «القمر» بتعظيم الملك وبليغ القدرة، وكان الملك القادر لا يكمل إلا بالرحمة، وكانت الرحمة لا تتم إلا بعمومها قصر هذه السورة على تعداد نعمه على خلقه في الدارين وذلك من آثار الملك، وفصل فيها ما أجمل في آخر «القمر» من مقر الأولياء والأعداء في الآخرة»[٣].

---

(١) "التفسير" ١٠/ ٣٣٥.

(٢) السابق ١٠/ ٣٣٤.

(٣) "نظم الدرر" ٧/ ٣٧١.

وتأمل قوله: «وذلك من آثار» وكأني بالبقاعي يقتص آثار معاني «القمر» في بناء بيان سورة «الرحمن» وكيف تشكل منها وانشعب من محيطها. فنبه على ما بين السورتين من قبض وبسط، ووضع لفتات نافذة وصل فيها الفروع بالأصول وحدد أقسام سورة «الرحمن» وردها إلى نظائرها في مقطع «القمر» فكأن «الرحمن» نشر لما لف وطوى من معانٍ في تلك الجملة.

وهذا المسلك ابتدأه الإمام الرازي في توجيه العلاقة بين أول «الزلزلة» وآخر «البينة» حيث ذكر: «أنه تعالى لما ذكر في السورة المتقدمة وعيد الكافر ووعد المؤمن أراد أن يزيد في وعيد الكافر، فقال: أجازيه حين يقول الكافر السابق ذكره: ما للأرض تزلزل، نظيره قوله: «يوم تبيض وجوه وتسود وجوه» ثم ذكر الطائفتين فقال: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧] ثم جمع بينهما في آخر السورة فذكر الذرة من الخير والشر»[1]

فسورة «البينة» أجملت وعيد الكافر في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ [البينة: ٦]. وفصلت جزاء المؤمن ثم كرت «الزلزلة» على ما أجملته «البينة» فنشرته وفصلته ثم جمعت ما تفرق بين سورتي البينة وأول «الزلزلة» لتلتقي حلقتا الكلام عند هذا المقطع ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨].

واللف والنشر ضرب من ضروب بناء العبارة وتنظيم معانيها، والتنظيم فيه يترك جانبًا منه ليقظة النفس وقرائن الكلام [2]، هذا فيما بين العبارة الواحدة؛ لأن المعاني تتوزع في مساحة محدودة بين طرفي الجملة أما فيما بين السور فإن المعاني تختلف صورتها بالتفصيل والتفسير فيكون ردها إلى مباديها وجذورها فيه شوب غموض وخفاء فيتطلب ذلك يقظة حس وزياة تأمل للعناصر وتحديد المشترك منه ورده إلى نظيره المجمل.

---

(١) "التفسير" ١١/ ٢٥٣.

(٢) "دراسة في علم البديع" دكتور: محمد أبو موسى ص٣٣.

وأحيانًا يأتي افتتاح السورة بصريح معانٍ تضمنتها السورة السابقة فيكون كالمؤكد لها كما في وجه تعلق سورة «لقمان» بسورة «الروم»، فـ«وجه ارتباط أول هذه السورة بآخر ما قبلها هو أن الله تعالى لما قال: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ [الروم: ٥٨] . إشارة إلى كونه معجزة، وقال: ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ ﴾ إشارة إلى أنهم يكفرون بالآيات بين ذلك بقوله ﴿ الٓمٓ ۞ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ [لقمان: ١،٢] .ولم يؤمنوا بها، وإلى هذا أشار بعد هذا بقوله: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان: ٧]. [١]

وسورة «المطففين» يجعلها معاني حامت حولها عبارة «الانفطار» واستغنت بالتلميح عن التصريح فجاء مفتتح ما بعدها مصرحًا بها وماطلًا لإيحائها، فالرازي يرتب ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ [المطففين:١] على قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ [الانفطار:١٩]. يقول في وجه تعلقه به: «اعلم أن اتصال أول هذه السورة بآخر السورة المتقدمة ظاهر ؛ لأنه تعالى بين في آخر تلك السورة أن يوم القيامة يوم من صفته أنه لا تملك نفس لنفس شيئًا والأمر كله لله، وذلك يقتضي تهديدًا عظيمًا للعصاة، فلهذا أتبعه بقوله: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ والمراد الزجر عن التطفيف وهو البخس في المكيال والميزان بالشيء القليل على سبيل الخفية» [٢].

فوصف اليوم استلزم تهديدًا صرحت به جملة الافتتاح. بينما يجعل الإمام الغرناطي ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ معنى اقتضاه قوله: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾[الانفطار:١٠] لأنه مشعر بوقوع الجزاء على جزئيات الأعمال وأنه لا يغادر منها شيئًا فعقبه بذكر التطفيف وما لمرتكبه من الجزاء [٣].

---

(١) "التفسير" الرازي ٩/ ١١٤.

(٢) السابق ١١/ ٨٢.

(٣) "البرهان" ص ٣٥٨ بتصرف.

ويتبعه في ذلك السيوطي إلا أنه لا يعلق سورة «الانفطار» برأس «المطففين» وافتتاحها بالوعيد، وإنما يجعل ما ذكر فيها من حال ما يكتبه الحافظون تفصيلًا لقوله: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴾ فـ «ذكر في هذه السورة حال ما يكتبه الحافظون وهو: كتاب مرقوم، يجعل في عليين أو في سجين... عقب الكتابة إما في يومه أو بعد الموت والبرزج كما في الآثار»[1].

وسورة «القارعة» يجعلها تحليلًا وتفصيلًا للإجمال في سورة «العاديات» في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ [العاديات: ١١] . فهي ابتداء جواب عن سؤال مقدر أثاره ذلك الخطاب، «فكأنه قيل: وما ذلك اليوم؟ فقيل: هي القارعة»[2]. ويوجه جميع آياتها تجاه هذا المقصد فيتنزل منزلة الجملة من الجملة، وقد نبه على ذلك في بيان سرّ اختيار التعبير بقوله: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴾ [القارعة:١٠] دون «وما أدراك ما هاوية» ولم يجرها على نظم الافتتاح في قوله: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ [القارعة:٣] مطابقة لأولها في النظم والمعنى أي المبالغة في التهويل «لأنها في الشدة بحيث لا يبلغها وهم أحد ولا فهمه،... كأنه تعالى قال: قوارع الدنيا في جنب تلك القارعة كأنها ليست بقوارع، ونار الدنيا في جنب نار الآخرة كأنها ليست بنار»[3].

وفي سورة «الممتحنة» يبني افتتاحها على الصفات القدسية التي ختمت بها «الحشر» دون أن يذكر سبب توسط جملة الأوصاف بين غرضين متصلين ؛ لأن «الحشر» في بيان حال النبي مع المتعاهدين من اليهود والنصارى و«الممتحنة» في المتعاهدين من المشركين[4]، وإنما اكتفى بقوله: «أما تعلق الأول بالآخر فظاهر لما أن آخر تلك السورة يشتمل على الصفات الحميدة لحضرة الله تعالى من الوحدانية وغيرها، وأول هذه السورة مشتمل على حرمة الاختلاط مع من لم يعترف بتلك الصفات»[5]. وخالفه من جاء بعده في نسبة هذه السورة إلى ما قبلها

---

(١) "تناسق الدرر" ص ١٥٩.

(٢) "التفسير" ١١/ ٢٦٥.

(٣) السابق ١١/ ٢٦٦.

(٤) ينظر: السابق ١٠/ ٥١٥.

(٥) السابق نفسه.

فالغرناطي لا يرتبها على «الحشر» بل يردها على سورة «المجادلة»، ويجعل «الحشر» معترضة بين النهيين في آخر سورة «المجادلة» ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢]. وأول «الممتحنة»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾[الممتحنة:١]. لغرض يقول فيه: «وكأن سورة الحشر وردت مورد الاعتراض المقصود بها تمهيد الكلام وتنبيه السامع على ما به تمام الفائدة، لما ذكر أن شأن المؤمنين أنهم لا يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا أقرب الناس إليهم، اعترض بتنزيهه عن مرتكباتهم ثم أتبع ذلك ما عجله لهم من النقمة والنكال، ثم عاد الأمر إلى النهي عن موالاة الأعداء جملة له»[(١)].

أما السيوطي فيعلقها بمقصد السورة وغرضها العام ويجعلها بسطًا وتفصيلًا لمعنى ذكر في «الحشر» هو نهي المؤمنين عن موالاة الذين نافقوا الكفار، فكررت «الممتحنة» هذا المعنى وبسطته[(٢)].

وتنبه البقاعي إلى دقيقة في كلام الإمام الرازي كشفت له عن خصوصية غرض «الممتحنة» وأن تعلقها بمقاصد ما قبلها ليس بسطًا وتكرارًا وإنما لزيادة فائدة؛ لذلك لم يعول الرازي على المقصد وإنما قال: «من جملة ما يتحقق به التعلق»[(٣)] أي أن مضامين السورة تحمل تفاصيل أخرى وتقاسيم جديدة غير التي في سياق «الحشر» وهذه الخصوصية نبعت من تحت

(١) "البرهان" ص ٣٣٣

(٢) "تناسق الدرر" ص١٣٣.

(٣) "التفسير" ١٠/ ٥١٥.

بيان مقطع «الحشر» والاستطالة في ذكر الصفات المجيدة، وقد التقط البقاعي هذا الخيط وكشف به عن التناسب بين السور المتتالية وكيف نزعت تلك الصفات بالمعنى وجعلت له سمتًا آخر وشقت مجرى لدلالة أضفاتها في سورة «الممتحنة»، يقول: «ولما كان قد تم في «المجادلة» النهي الشديد عن إظهار مطلق الموادة للكفار، وفي «الحشر» الزجر العظيم عن إبطان ذلك فتكلفت السورتان بالمنع من مصاحبة ودهم ظاهرًا أو باطنًا، بكت هنا من اتصف بالإيمان وقرعه ووبخه على السعي في موادتهم والتكلف لتحصيلها؛ فإن ذلك قادح في اعتقاد تفرده سبحانه بالعزة والحكمة»[1].

وفي سورة «الجمعة» يمكن لتعلق أولها بآخر ما قبلها عن طريق ربط مطلع سورة «الصف» بمطلعها يقول فيها: «وجه تعلق هذه السورة بما قبلها هو أنه تعالى قال في أول تلك السورة: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ بلفظ الماضي وذلك لا يدل على التسبيح في المستقبل، فقال في أول هذه السورة بلفظ المستقبل؛ ليدل على التسبيح في زماني الحاضر والمستقبل، وأما تعلق الأول بالآخر، فلأنه تعالى ذكر في آخر تلك السورة أنه كان يؤيد أهل الإيمان حتى صاروا عالين على الكفار، وذلك على وفق الحكمة لا للحاجة إليه؛ إذ هو غني على الإطلاق، ومنزه عما يخطر ببال الجهلة في الآفاق، وفي أول هذه السورة ما يدل على كونه مقدسًا ومنزهًا عما لا يليق بحضرته العالية بالاتفاق ثم إذا كان خلق السماوات والأرض بأجمعهم في تسبيح حضرة الله تعالى فله الملك»[2].

فخاتمة السورة هيأت لمطل دلالة التسبيح في المطلع وحركت الفعل من المضي إلى الاستقبال؛ لتزيل ما في معنى التسبيح من التقييد وتجعله تسبيحًا مطلقًا لا يحده زمن، والذي أسبغ عليه معنى الاستقبال ما تضمنته الخاتمة من معنى تأييد الله لأهل الإيمان وإظهارهم على الكفار فاقتضى ذلك التعظيم لشأنه؛ لأنه الغنى على الإطلاق، واستلزم الإنعام مطلق التنزيه

(١) "نظم الدرر" ٧/ ٥٤٨.

(٢) "التفسير" ١٠/ ٥٣٧.

من المنعم عليهم، وهذا قريب من الوجه الذي ذكره الواحدي في تفسيره للآية حيث قال: «قال أهل المعاني: إنما أعيد ذكر التسبيح في هذه السورة لاستفتاح السورة بتعظيم الله من جهة ما يسبح له كما يستفتح بـ «بسم الله الرحمن الرحيم»وإذا جعل المعنى في تعظيم الله حسن الاستفتاح به».

فقوله: «تعظيم لله من جهة ما يسبح له» هي الوشيجة الممتدة من نسيج خاتمة سورة «الصف» والباعثة لمعاني ومقاصد سورة «الجمعة»، فكأن اختيار صيغة المضارع تصوير لحال تلك الفئة في ثنائها المطلق على الله. وبذلك تكون السورة بناء على مقاصد السورة قبلها وإثارة لمعانٍ في أبنيتها اللغوية. وهذا يحتاج إلى تدسس في تلك الأبنية وتفتيش في خباياها عما استكن وأضمر في غيبها فيمتد به ويبعثه نحو الظهور والإبانة في بيان السورة بعدها، ثم زاد على استحضار المعنى السابق بوصف وجه الزيادة في مطلع «الجمعة» وتوجيه ذلك نحو المقاصد، وذلك في قوله: ﴿ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ﴾[الجمعة:١]. وهذا الوصف إشباع لبقايا مقاصد جرت فيما قبلها وقد جلى هذه الفكرة والمغزى من الوصف ابن الزبير فقال: «لما ختمت سورة «الصف» بالثناء على الحواريين في حسن استجابتهم وجميل إيمانهم، وقد أمر المؤمنين بالتشبه بهم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾[الصف:١٤]. كان ذلك مما يوهم فضل أتباع عيسى عليه السلام على أتباع محمد ﷺ فأتبع بذكر هذه الأمة والثناء عليها، فافتتحت السورة بالتنزيه عما أشار إليه قوله: ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ (١).

فالثناء على الله بما ينبغي وتنزيهه عما لا ينبغي تضمن معنى التعريف بكفر طائفة من النصارى وهيأ لمدح أمة محمد ﷺ فجاءت السورة مدحًا لهم.

(١) "البرهان" ص ٣٣٥، ٣٣٦.

ودراسة التناسب فيما بين مطلع السورة ومقطع ما قبلها كشفت عن جانب وضيء في إعجاز الجملة القرآنية وما يراعى فيها من خصوصيات بيانية تمكن للسياق السابق وتداخله بها ثم تهيئ لمعنى جديد، وذلك يتطلب براعة في التأليف وخصوصية في البناء، فالجملة تتصور ابتداء في صورة المنفصل وكأنها مقطع مستقل لكن بصيرة الإمام استطاعت أن تنفذ إلى ما وراء ذلك الفصل من وصل وائتلاف فنبه عليه وكشف عن أسرار بلاغته. وهذا يحتاج إلى مزيد بحث وعناية في الدراسات البلاغية؛ لأنه باب لم يفتح وإنما طرقات ابتدأها الإمام تنتظر المتابعة حتى يكشف عن معالمه.

ثانيًا: التناسب بين مقاصد السورة والسورة السابقة

لم يكتف الإمام بالتناسب بين السورتين باعتبار التئام جملتي مطلع السورة ومقطع السابقة لها من غير أن يكون هناك إيذان من المقاصد والأغراض تتحقق معها المناسبة وتقوى به المصاهرة، فنشأ هذا اللون من الدراسة عنده وهو أعم من سابقه ويداخله شيء من الغموض ؛ لأن الناظر فيما بين السورتين لا يراوح النظر بين الآية والآية أو جملة آيات، وإنما يستبطن عمق المقاصد ويلحظ ما بينها من روابط وعلاقات يحسن معها التجاور ويستقيم معها الترتيب، ولو كان الأمر مجرد وجه يكفي لحفظ التناسب والتشاكل بين السورتين لوقف الإمام عند التعلق بين جملتي المطلع والمقطع، ولكن كانت غايته الاستدلال على تماسك أجزاء الكتاب العزيز وتداخل آياته وسوره وبلوغه في ذلك مبلغ الإعجاز الذي تنقطع عنده الأطماع، فالترتيب قد يتأتى في البيان الإنساني في الكلام الواحد، وربما يتفق بين كلامين مختلفين زمنيًّا لكن تكون العلاقة باهتة وخافتة تتمحلها الأذهان، أما في القرآن فتجد ضروبًا مختلفة من التأليف تتفرع وتتكاثر وتتداخل حتى تظن أن هذه قطعة من تلك وأن ما بينهما من فاصل هو استرواح لتجديد نشاط القارئ أو مناقلة للمقاصد وإعادة تصريف بيانها بأفانين مختلفة تعجب المتأمل وتجلي له عطاء الكلمة الإلهية وما يمدها من خزائن علم الله.

فاللحمة بين السور تجاوزت ذلك إلى مساحات أوسع في هيكلة السورة كلها، فأخذت تستشرف إيماضات وتنبيهات تحيل إلى مقاصد ما قبلها، والعلاقة بين مطلع السورة ومقطع ما قبلها لا يكتمل بمعزل عن الأغراض والمعاني. فكل سورة تحمل مضامين تنسل من معانٍ تحت أبنية ما قبلها وتمتد بدلالات جرت في سياق أخيتها. وهذا المعنى قائم في المبنى اللغوي للفظة السورة فهي تعني «قطعة وطائفة من القرآن كالسورة التي هي البقية من الشيء والفضلة منه»[1]. أي أن هناك بقايا من معانٍ سابقة لم تشبعها تلك السورة فجاءت ما بعدها تفصيلًا لها فخالطت محتواها، ومازجت عناصرها وذابت في أغراض السورة التالية وكونت مقاصدها، فكل سورة بوضعها المستقل لها فائدة ثم إذا اعتبرت مع ما قبلها كانت تفصيلًا لما

(١)" التفسير " الرازي ١/ ٣٤٩.

أجمل في تلك السورة من معانٍ وتفريعًا لأغراض وتنبيهات تضمنتها وطويت في أبنيتها اللغوية، فلما رتبت وركبت عليها انبعثت منها ولائد هي نتاج لدلالة السورة السابقة ومعانيها. لكن التفصيل بين السورتين ليس كالتفصيل في حيز السورة الواحدة؛ لأن المعنى يتجاذبه سياقان مختلفان فتتغير صورته باعتبار الأجواء المحيطة به أي أغراض كل سورة، فتكتنف العلاقة شوب من الخفاء لا يزول إلا بملاحقته في نظم ما قبلها وترتيبه عليها، فتتلاحظ الأشباه وتتجاوب الأشكال وتتجاذب فتسفر العلاقة عن صبح.

فغالبًا ما يفتش في أبنية السورة السابقة عن جهات انتساب مقاصد السور التالية إليها وما استنار فيها من معانٍ توقدت تحت بيان ما قبلها، من ذلك ما ذكره في وجه العلاقة بين سورتي «الطلاق» و«التغابن»: «أما التعلق بما قبلها فذلك أنه تعالى قال في أول تلك السورة: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن:١]. والملك يفتقر إلى التصرف على وجه يحصل معه نظام الملك، والحمد يفتقر إلى أن ذلك التصرف بطريق العدل والإحسان في حق المتصرف فيه وبالقدرة على من يمنعه عن التصرف، وتقرير الأحكام في هذه السورة متضمن لهذه الأمور المفتقرة إليها تضمنًا لا يفتقر إلى التأمل فيه، فيكون لهذه السورة نسبة إلى تلك السورة»[1].

فسورة «الطلاق» سدت مدخلًا في بيان جملة افتتاح «التغابن»، فـ«التغابن» أثبتت صفتي الملك والحمد في سياق التهديد والوعيد البالغ للفرق الضالة من اليهود والنصارى وأهل النفاق، فجاءت «الطلاق» إشباعًا للإثبات وتقريره بالدليل والبرهان فكانت كالدعامة والركيزة التي مكنت لتلك الجملة فتضمنت تقرير الأحكام الدالة على تصريفه سبحانه وتنظيمه لأحوال ملكه بالعدل والإحسان.

وأما سورة «الحجرات» فلها أصداء متعددة في سورة «الفتح» فهي تتعلق بمعانٍ مختلفة جرت في سياقها يقول فيها: «في بيان حسن الترتيب وجوه، أحدها: أن في السورة المتقدمة لما جرى منهم ميل إلى الامتناع مما أجاز النبي ﷺ من الصلح وترك آية التسمية والرسالة

(١) "التفسير" ١٠/٥٥٨.

وألزمهم كلمة التقوى كأن رسول الله ﷺ قال لهم على سبيل العموم: لا تقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا تتجاوزوا ما يأمر الله تعالى ورسوله. الثاني: هو أن الله تعالى لما بين محل النبي ﷺ وعلو درجته بكونه رسوله الذي يظهر دينه، وذكره بأنه رحيم بالمؤمنين بقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. قال: لا تتركوا من احترامه شيئًا لا بالفعل ولا بالقول، ولا تغتروا برأفته، وانظروا إلى رفعة درجته.

الثالث: هو أن الله تعالى وصف المؤمنين بكونهم أشداء ورحماء فيما بينهم راكعين ساجدين نظرًا إلى جانب الله تعالى، وذكر أن لهم من الحرمة عند الله ما أورثهم حسن الثناء في الكتب المتقدمة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ [الفتح:٢٩]. فإن الملك العظيم لا يذكر أحدًا في غيبته إلا إذا كان عنده محترمًا، ووعدهم بالأجر العظيم، فقال في هذه السورة لا تفعلوا ما يوجب انحطاط درجاتكم وإحباط حسناتكم ولا تقدموا»[1].

فالوجه الأول استحضر وأبرز معنى مكنونًا جيء به في تلك السورة متممًا لغرض أصل وهو قوله: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ﴾ [الفتح: ١٦]. وقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٧]. فنبهت الآيات على الترغيب في الطاعة لله ولرسوله عليه السلام، فجاء قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟﴾ [الحجرات: ١] مطلًا للدلالة وإشباعًا لمعنى الترغيب وتأكيدًا له بصورة الأمر والإيجاب.

والوجه الثاني والثالث جعله مرتبًا على قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم

(١) "التفسير" ١٠/ ٩١.

مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ [الفتح: ٢٩]. فهي إما أن تكون تخليصًا لوصف الرسول عليه الصلاة والسلام بالرحمة من أي توهم يؤدي إلى مجاوزة الحدّ أو الاغترار بذلك، لأن الآية السابقة وضعته في قدم مساواة مع الذين آمنوا فقال: ﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ فقد يظن معها أن طريقة تعاملهم مع رسول الله ﷺ كالتعامل بينهم، فجاءت هذه الآية دفعًا للتوهم وبيانًا لمكانته ﷺ وخصوصية محله ورفعة درجته.

ومعاني «الكوثر» كانت مفهومات تحت منطوق سورة «الماعون»، فذم صفة يستلزم الثناء على ضدها فتحركت الدلالة نحو الإبانة فجاءت معاني «الكوثر» مترتبة على هيئة ما قبلها، يقول فيها: «اعلم أن هذه السورة كالمقابلة للسورة المتقدمة، وذلك لأن في السورة المتقدمة وصف الله تعالى المنافق بأمور أربعة: أولها: البخل، وهو المراد من قوله: ﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ [الماعون: ٢،٣]. والثاني: ترك الصلاة، وهو المراد من قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾[الماعون: ٥]. ، الثالث: المراءة في الصلاة وهو المراد من قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ [الماعون: ٦]. والرابع: المنع من الزكاة وهو المراد من قوله: ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾[الماعون: ٧]. فذكر في هذه السورة في مقابلة تلك الصفات الأربع صفات أربعة، فذكر في مقابلة البخل قوله: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ [الكوثر: ١].أي أنا أعطيناك الكثير فأعط أنت الكثير ولا تبخل وذكر في مقابلة ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ قوله: ﴿ فَصَلِّ ﴾ أي دم على الصلاة، وذكر في مقابلة ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ [الماعون:٦]قوله: ﴿لِرَبِّكَ ﴾ أي أئت بالصلاة لرضا ربك لا لمراءة الناس، وذكر في مقابلة ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ [الماعون:٧]. قوله: ﴿ وَٱنْحَرْ ﴾ وأراد به التصدق بلحم الأضاحي، فاعتبر هذه المناسبة العجيبة، ثم ختم السورة بقوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ أي المنافق الذي يأتي بتلك الأفعال القبيحة

المذكورة في تلك السورة سيموت ولا يبقى من دنياه أثر ولا خبر، وأما أنت فيبقى لك في الدنيا الذكر الجميل، وفي الآخرة الثواب الجزيل»[1].

فتجاوز بها السياق الخارجي وركب بيانها على تراكيب ما قبلها وأجراها في نظمها فاستقام له المعنى وتكامل، وزاد مقطعها في الالتئام حيث عاد آخر «الكوثر» بالمذمة على ذلك الصنف الذي يكذب بالدين ويأتي بالأفعال القبيحة وبيان ما آل إليه حاله من الخسران والخذلان.

وكذلك في المقابلة بين سورتي «الناس» و«الفلق» فـ «المستعاذ به في السورة الأولى مذكور بصفة واحدة وهي أنه رب الفلق، والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات: وهي الغاسق، والنفاثات، والحاسد، وأما في هذه السورة فالمستعاذ به مذكور بصفات ثلاث وهي: الرب، والملك، والإله، والمستعاذ منه آفة واحدة وهي الوسوسة، والفرق بين الموضعين أن الثناء يجب أن يتقدر بقدر المطلوب، فالمطلوب في السورة الأولى سلامة النفس والبدن، والمطلوب في السورة الثانية سلامة الدين، وهذا تنبيه على أن مضرة الدين وإن قلت أعظم من مضار الدنيا وإن عظمت، والله سبحانه وتعالى أعلم»[2].

فاختلاف توزيع المعاني والمقابلة في تصريفها حيث جعل للمستعاذ به في الثاني ثلاث صفات بينما كان هناك وصف واحد، وجعل المستعاذ منه في الثاني نوعًا واحدًا بينما كان في الأولى ثلاثة أنواع، أثار بيانًا وراء تغاير البناء ومناقلة الترتيب مع تشابه شيات المعاني في السورتين فنبه ذلك على عظمة الدين وضرورة التحذير التام من أجل سلامته.

وهذا المعنى تشكلت هيئته بترتيبه على السورة السابقة، فكل سورة مشحونة بأصداء المقاصد السابقة لها فبمجرد النظر إليها في سياق ما قبلها يثير هواجع معانيها و يبعث ولائد أنتجتها ما قبلها، وهي مع هذا لا تتقاطع معها وإنما تزيد في بيانها وتتمه. فسورة «الممتحنة»

(١) "التفسير" ١١/ ٣٠٧.

(٢) السابق ١١/ ٣٧٨.

أوجبت البراءة عن المشركين ووصفت العباد بالتنزه عن موالاتهم[1]، وهيأت للأمر بالجهاد وقدمت لبيانه بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة:١]. فجاءت «الصف» للحث على الخروج للجهاد «وبيان ما يحمل أهل الإيمان على الجهاد»[2]، وليس لبسط ذكر الجهاد كما ذكر السيوطي[3].

ثم أدار سورة «الصف» على تلك الآية في «الممتحنة» لإشباع هذا المقصد وبسطه وبعث مغزى السورة، وهو الحث من خلال مراوحة أساليبها بين الترغيب والترهيب، فرهبت من تركه في قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٣]. ورغبت فيه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾[الصف:٤]. فـ « تلك الآية مذمة المخالفين في القتال وهم الذين وعدوا بالقتال ولم يقاتلوا. وهذه الآية محمدة الموافقين في القتال وهم الذين قاتلوا في سبيل الله وبالغوا فيه»[4].

وفي قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠، ١١]. مبالغة في الجهاد وذلك بمجيء الجهاد بعد ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فقوى معنى الجهاد وشعبه، فأفاد ثلاثة معانٍ يقول: «والجهاد بعد هذين الوجهين ثلاثة: جهاد فيما بينه وبين نفسه، وهو قهر

(١) "البرهان" الغرناطي ٣٣٣.

(٢)"التفسير" ١٠/ ٥٢٦.

(٣) "تناسق الدرر" ص ١٣٤.

(٤) السابق ١٠/ ٥٢٧، ٥٢٨.

النفس ومنعها عن اللذات والشهوات، وجهاد فيما بينه وبين الخلق، وهو أن يدع الطمع منهم، ويشفق عليهم ويرحمهم، وجهاد فيما بينه وبين الدنيا وهو أن يتخذها زادًا لمعاده»[1].

ونوع آخر تجد فيه سورة أم تتوالى بعدها عدة سور تتفرع عنها وكل سورة تشبع زاوية مجملة في تلك السورة فتكون هي المركز الذي تتجاذبه وتلتف حوله، ذكر ذلك في تفسيره لسورة «المنافقون» و«التغابن»، يقول في مناسبة «المنافقون» لسورة «الجمعة»: «وجه تعلق هذه السورة بما قبلها هو أن تلك السورة مشتملة على ذكر بعثة الرسول ﷺ وذكر من كان يكذبه قلبًا ولسانًا بضرب المثل كما قال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ [الجمعة:٥]. وهذه السورة على ذكر من كان يكذبه قلبًا دون اللسان ويصدقه لسانًا دون القلب»[2]. ثم جاءت التغابن مقابلة لما قبلها ومتممة لما جاء في «الجمعة» يقول: «وجه التعلق بما قبلها ظاهر لما أن تلك السورة للمنافقين الكاذبين وهذه السورة للمؤمنين الصادقين وأيضًا تلك السورة مشتملة على بطالة أهل النفاق سرًّا وعلانية، وهذه السورة على ما هو التهديد البالغ لهم»[3].

فسورة «الجمعة» جاءت لبيان بعثة النبي ﷺ وأحوال الخلق مع ما أنزل الله على رسوله ففصلت حال المؤمنين المصدقين وعرضت ضمنًا لموقف صنفين من المكذبين، الأول: أهل الكتاب وموقفهم من مبعثه عليه السلام، وإنكارهم لما جاء به مع زعمهم أنهم مهتدون فألمح لهذا الفريق بضرب المثل في قوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

والثاني: من صدق به لسانًا وكذبه اعتقادًا ووجدانًا، وجاء ذلك في سياق الأمر بتعظيم مكانه عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجمعة: ١١]. فكانت «تنبيهًا

(١) "التفسير" ١٠/ ٥٣١.

(٢) "التفسير" ١٠/ ٥٤٥.

(٣) السابق ١٠/ ٥٥١.

لأهل الإيمان على تعظيم الرسول ﷺ ورعاية حقه بعد النداء لصلاة الجمعة وتقديم متابعته في الأداء على غيره وأن ترك التعظيم من شيم المنافقين، والمنافقون هم الكاذبون»[1].

ويجمع هذين الموقفين جملة واحدة هي قوله: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ﴾ [الجمعة: ٣]. وهي الجذر الذي تفرعت عنه سورتا «المنافقون» و«التغابن»؛ لأن ما بعدها بيان لمضمر هذه وتفصيل لأحوال الآخرين وحالهم مع ما أنزل الله على رسوله. وزادت «التغابن» التهديد البالغ لكلا الفريقين بعد ما زال الغطاء عن مكنونات السرائر وبانت بطالة أهل النفاق سرًّا وعلانية، فلخصت تلك المواقف في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [التغابن: ٢]. ثم ارتدت إلى معنى جاء مجملًا في سورة «الجمعة» ففصلته وهو أن مدخل هذا الكفر والنفاق جاء من إنكار اليوم الآخر واطمئنانهم بالحياة الدنيا ودل عليه كراهيتهم للموت في قوله: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجمعة: ٨]. فحللت «التغابن» هذا المعنى وبالغت في وصفه وتهويل ما استخفوا به وباعدوه عن ظنونهم وصورته في صورة الواقع المشاهد أمام أبصارهم وحكت ما يئول إليه أمرهم في ذلك اليوم: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التغابن: ٩]. فالتقت عندهم عناصر السورتين السابقتين وانعطفت أطراف المعاني على أصولها فقررت «التغابن» اليوم الآخر ردًّا عليهم، فقال تعالى: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [التغابن: ٧،٨]. فتصديق ذلك اليوم هو سبب للإيمان بالله ورسوله، وهذا يقابل ما جاء في سورة «الجمعة» من أن كراهيتهم للموت هي سبب في صدهم عن الهدى الذي عرفوه.

وأحيانًا يكتفى بالإشارة إلى علاقات ظاهرة بين السورتين كاشتراكهما في الغرض العام أو الخطاب أو تشابه الافتتاح. مثل ما ذكره في مناسبة سورة «الممتحنة» بسورة «الحشر» يقول:

---

(١)" التفسير " ١٠/ ٥٤٥.

«اعلم أن من جملة ما يتحقق به التعلق بها قبلها هو أنهما يشتركان في بيان حال الرسول ﷺ مع الحاضرين في زمانه من اليهود والنصارى وغيرهم»[1] .

أما الاشتراك في الخطاب أو التناسب بين الافتتاح فلا يكون علة للمناسبة والتعلق فيما بين السورتين ما لم يكن باعتبار من المعاني وملاءمة بين الأغراض، كما في سورة «الطور» حيث ذكر فيها: «هذه السورة مناسبة للسورة المتقدمة من حيث الافتتاح وبيان الحشر فيهما»[2].

وكذلك سورة «التحريم» وتعلقها «بما قبلها فذلك لاشتراكهما في الأحكام المخصوصة بالنساء واشتراك الخطاب بالطلاق في أول تلك السورة مع الخطاب بالتحريم في أول هذه السورة لما كان الطلاق في الأكثر من الصور أو في الكل كما هو مذهب البعض مشتملًا على تحريم ما أحل الله»[3].

❊❊❊❊

(١) "التفسير" ١٠/ ٥١٥.

(٢) السابق ١٠/ ١٩٨.

(٣) السابق ١٠/ ٥٦٨.

ثالثًا: تناسب السورة مع أكثر من سورة

وهو نوع يظهر في «تفسير الرازي» بصورة لم أعرف أن غيره دخل فيه كما دخل الرازي فليس له نظائر في التفاسير المتقدمة أو المتأخرة عنه، وجاءت ندرته من غموض مسلكه وحاجته إلى تلطف لمعرفة مداخل السورة في السورة السابقة، وكيف تلاقت أطرافها، وانسلت من نسيجها في تتبع محكم لتوالي المعاني ونبعها من تحت لغة البيان السابق وكيف يفضي غرض إلى غرض وبيان إلى بيان. وهذه اللفتة وإن لم تكن في جميع السور إلا أن ما ذكره يمكن أن يكون منهجًا ينهج في كل سورة، وقد ذكر ذلك في تفسير سورة «الكوثر» وظني أن الذي فجر في نفسه ﷺ كل هذه المعاني محاولة دفع ما شاع حول أن التحدي وقع بالسور الطوال وأن الإعجاز يتفاوت وليس واحدًا في جميع السور؛ لذلك كانت هذه السور موضع عناية علماء البيان للكشف عن وجه الإعجاز فيها وأن التحدي واقع بها كالتحدي بأطول سورة، فأفرد الزمخشري رسالة حول الإعجاز في بيانها، وغزارة المعاني تحت ألفاظها، وما يحويها محارها من لآلئ البلاغة وأسرارها، وما تكتنزه من المحاسن والدقائق.

وقد ذكر الرازي ملخص هذه الرسالة في كتابه «نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز» وزاد في «تفسيره» بيان الإعجاز المتعلق بترتيبها وعلاقتها بما قبلها من السور وما بعدها. فجعل منها حلقة وصل بين السور السابقة لها واللاحقة يقول: «إن هذه السورة كالتتمة لما قبلها من السور، وكالأصل لما بعدها من السور. أما أنها كالتتمة لما قبلها من السور، فلأن الله تعالى جعل سورة «والضحى» في مدح محمد عليه الصلاة والسلام وتفصيل أحواله، فذكر في أول السورة ثلاثة أشياء تتعلق بنبوته أولها: قوله ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[الضحى:٣]. وثانيها قوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾[الضحى:٤]. وثالثها: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى:٥]. ثم ختم هذه السورة بذكر ثلاثة أحوال من أحواله عليه السلام فيما يتعلق بالدنيا وهي قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾

[الضحى:٦-٨].

ثم ذكر في سورة: «ألم نشرح» أنه شرفه بثلاثة أشياء، أولها: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]. وثانيها: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح:٢،٣]. وثالثها: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:٤].

ثم إنه تعالى شرفه في سورة «التين» بثلاثة أنواع من التشريفات، أولها: أنه أقسم ببلده، وهو قوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ٣]. وثانيها: أنه أخبر عن خلاص أمته من النار، وهو قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [التين: ٦]. وثالثها: وصولهم إلى الثواب وهو قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦].

ثم شرفه في سورة «اقرأ» بثلاثة أنواع من التشريفات، أولها: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١].

أي اقرأ القرآن على الحق مستعينًا باسم ربك. وثانيها: أنه قهر خصمه بقوله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ * سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق:١٧،١٨]. وثالثها: أنه خصه بالقربة التامة، وهو ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ [العلق: ١٩].

وشرفه في سورة «القدر» بليلة القدر التي لها ثلاثة أنواع من الفضيلة، أولها: كونها ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣]. وثانيها: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤].

وثالثها: كونها ﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر: ٥].

وشرفه في سورة «لم يكن» بأن شرف أمته بثلاثة تشريفات أولها: أنهم خير البرية. وثانيها: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ﴾ [البينة: ٨]. وثالثها: رضا الله عنهم. وشرفه في سورة «إذا زلزلت» بثلاثة تشريفات، أولها: قوله ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤]. وذلك يقتضي أن الأرض تشهد يوم القيامة لأمته بالطاعة والعبودية. والثاني: قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الزلزلة: ٦]. وذلك يدل على أنه تعرض عليهم طاعاتهم فيحصل لهم الفرح والسرور. وثالثها: قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧]. ومعرفة الله لا شك أنها أعظم من كل عظيم فلابد وأن يصلوا إلى ثوابها.

ثم شرفه في سورة «العاديات» بأن أقسم بخيل الغزاة من أمته فوصف تلك الخيل بصفات ثلاث: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۞ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۞ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ [العاديات: ١-٣]. ثم شرف أمته في سورة «القارعة» بأمور ثلاثة، أولها: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [القارعة: ٦]. وثانيها: أنهم في ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾[القارعة:٧]. وثالثها: أنهم يرون أعداءهم في نار حامية.

ثم شرفه في سورة «ألهاكم» بأن بين أن المعرضين عن دينه وشرعه يصيرون معذبين من ثلاثة أوجه، أولها: أنهم يرون الجحيم. وثانيها: أنهم يرونها عين اليقين. وثالثها: أنهم يسألون عن النعيم.

ثم شرف أمته في سورة «العصر» بأمور ثلاثة، أولها: الإيمان ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [العصر:٣]. وثانيها: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[العصر:٣]. وثالثها: إرشاد الخلق إلى الأعمال الصالحة، وهو التواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

ثم شرفه في سورة «الهمزة» بأن ذكر أن من همز ولمز فله ثلاثة أنواع من العذاب، أولها لا ينتفع بدنياه البتة، وهو قوله: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾[الهمزة:٣]. وثانيها: أن ينبذ في الحطمة. وثالثها: أن يغلق عليه تلك الأبواب حتى لا يبقى له رجاء في الخروج، وهو قوله: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ [الهمزة:٨].

ثم شرفه في سورة «الفيل» بأن رد كيد أعدائه في نحرهم من ثلاثة أوجه، أولها: جعل كيدهم في تضليل. وثانيها: أرسل عليهم طيرًا أبابيل. وثالثها: جعلهم كعصف مأكول.

وشرفه في سورة «قريش» بأنه راعي مصلحة أسلافه من ثلاثة أوجه، أولها: جعلهم مؤتلفين متوافقين لإيلاف قريش. وثانيها: أطعمهم من جوع. وثالثها: أنه آمنهم من خوف.

وشرفه في سورة «الماعون» بأن وصف المكذبين بدينه بثلاثة أنواع من الصفات المذمومة، أولها: الدناءة واللؤم، وهو قوله: ﴿يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾[الماعون:٢،٣]. وثانيها: ترك تعظيم الخالق، وهو قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ [الماعون:٥،٦]. وثالثها: ترك انتفاع الخلق، وهو قوله: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾[الماعون:٧].

ثم إنه سبحانه وتعالى لما شرفه في هذه السور من هذه الوجوه العظيمة قال بعدها: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾[الكوثر:١]. أي إنا أعطيناك هذه المناقب المتكاثرة المذكورة في السور المتقدمة التي كل واحد ة منها أعظم من ملك الدنيا بحذافيرها، فاشتغل أنت بعبادة هذا الرب وبإرشاد عباده إلى ما هو الأصلح لهم، أما عبادة الرب فإما بالنفس وهو قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾[الكوثر:٢]. وإما بالمال وهو قوله: ﴿وَٱنْحَرْ﴾[الكوثر:٢]، وما إرشاد عباده إلى ما هو الأصلح لهم في دينهم ودنياهم فهو قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾[الكافرون:١،٢]. فثبت أن هذا السورة كالتتمة لما قبلها من السور، وأما أنها كالأصل لما بعدها فهو أنه تعالى يأمره بعد هذه السورة بأن يكفر جميع أهل الدنيا بقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾. ومعلوم أن عسف الناس على مذاهبهم وأديانهم أشد من عسفهم على أرواحهم وأموالهم، وذلك أنهم يبذلون أموالهم وأرواحهم في نصرة أديانهم، فلا جرم كان الطعن في مذهب الناس يثير من العداوة والغضب ما لا يثير سائر المطاعن، فلما أمره بأن يكفر جميع أهل الدنيا، ويبطل أديانهم لزم أن يصير جميع أهل الدنيا في غاية العداوة له، وذلك مما يحترف عنه كل أحد من الخلق فلا يكاد يقدم عليه، وانظر إلى موسى عليه السلام كيف كان يخاف من فرعون وعسكره. وأما ههنا فإن محمدًا ﷺ لما كان مبعوثًا إلى جميع أهل الدنيا، كان كل واحد من الخلق كفرعون بالنسبة إليه، فدبر تعالى في إزالة هذا الخوف الشديد تدبيرًا لطيفًا، وهو أنه قدم على تلك السورة هذه السورة، فإن قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾يزيل عنه ذلك الخوف»[1].

فردها إلى جذر الدلالة الذي نمت منه وتفرعت عنه وهو سورة «الضحى»، فـ«الضحى» قررت معنى، وهو مدح النبي ﷺ ثم تضمنت معنى مجملًا وهو قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾[الضحى:٥].

وتأكد هذا المعنى بذكر أحواله قبل اصطفائه واجتبائه لتلك المنزلة الشريفة، وكيف آواه وهداه وأغناه ثم أجملت معنى وهو أن هذه العطايا ممتدة لا تنقطع، فتوالت السور بعدها تغذي المعنى وتزيد في الإبانة عنه وتفصيله متدرجة بالمنح الإلهية، منها ما يختص بذاته

(١) "التفسير" ١١/ ٣٠٨، ٣٠٩.

الطاهرة ﷺ من شرح الصدر وإعلاء الذكر، وتأييده بالقرآن واختصاصه بالقربة التامة، وغير ذلك، ومنها ما هو عام في أمته فقد شرفها بالخلاص من النار، والثواب غير المنقطع، وليلة القدر، وجعلهم خير أمة، وهذا غاية في بابه. وكل ذلك لتحقيق معنى ﴿فَتَرْضَىٰٓ﴾ وتصوير كيف تكون العطايا مرضيًا عنها.

وجاءت «الكوثر» لتجمل جميع العطايا السابقة وتقررها فقال: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ أي المناقب المتكاثرة، وأضافت معنى امتداد هذه المنح إلى آجلها في الآخرة، وهو نهر في الجنة، وتناوب المعاني بين الإجمال تارة والتفصيل أخرى مسلك ظاهر في إشباع دلالة الآيات داخل السورة الواحدة، وقد استثمره الإمام للكشف عن خبايا التناسب والتعالق بين السور المتجاورة والتدليل على كونها معنى متكاملًا، فقوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ وهي إعادة واستحضار لجملة: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ وهذا تفتيش دقيق في أبنية الكلام لتجلية أصول المعاني بعضها من بعض، والمقاربة بين متشابهها وإن تباعد واختلف.

فالرازي لا يعلق السورة بما قبلها دون اعتبار لنسب توجب الانتساب إليها وإنما يعتمد في ذلك على الفحص لمباني الجملة وخصوصيات الأداء، فلام العهد في كلمة «الكوثر» جاءت ولم يكن ثمة معهود سابق في الجملة تعود عليه أحال إلى سياقات سابقة تتبعها فانتظمت جميع ما يمكن دخوله في حيز عموم العطاء، فاستحضرت ثلاث عشرة سورة وهي مجموع ما بين سورتي «الضحى» و«الكوثر»، ثم حارت دلالتها لتلتقي مع رأس المعنى وهو ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ فالكوثر هو المناقب الكثيرة التي جرت في السياقات السابقة على اختلاف مقصد كل سورة. فكان ذلك هو الخيط الناظم للسور التي توسطت بين الوعد بالعطاء في قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ وإنجاز الموعود في قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾.

وأيضًا رجوع المعنى مجملًا بعد تفصيله سدى لحمة الكلام وعانق بين أجزائه وجعله منصبًا في حاق المعنى السابق، وهو ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ﴾ فقوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ﴾ هي

واقع عملي للعطاء الذي وعد به عليه الصلاة والسلام من ربه فقرره ورتب عليه ما ينبغي تجاه ذلك الإنعام من شكر النعم والاشتغال بالعبادة.

أما كونها أصلًا لما بعدها فلأنه أخبر بنقصان من شنأ مسلكه عليه الصلاة والسلام وحاد عن نهجه فجاءت ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لبيان أن الكمال لا يكون إلا بالتبرؤ من الشرك والمشركين.

ولما كان عسف الناس وقيادتهم في أديانهم ومذاهبهم من أشد الأمور إثارة للعداوة والبغضاء قدمت سورة «الكوثر» إزالة لدواعي الخوف والخشية التي قد تساور فؤاده الشريف، وتثبيتًا لنفسه ﷺ لمجابهة أئمة الكفر ومشافهتهم بإظهار الدين ونبذ جميع ما يدعون من دون الله، وقد أحسن الرازي حينما نبه إلى منبع هذه الفكرة وأن الذي أثارها في نفسه هو سمت بيان القرآن فليست غريبة عنه، ولا مستقاها الفكر المجرد وإنما جرت في سياق آخر شبيه بهذا السياق، فلما اختار الله موسى للتكليف بدعوة فرعون كلمه وناجاه «فهذا يقوم مقام قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[النساء:١٦٤]. بل هذا أشرف؛ لأن المولى إذا شافه عبده بالتزام التربية والإحسان كان ذلك أعلى مما إذا شافهه في غير هذا المعنى بل يفيده قوة في القلب ويزيل الجبن عن النفس، فثبت أن مخاطبة الله إياه بقوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ مما يزيل المخاوف عن القلب والجبن عن النفس»[1].

وفي قوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾.. ردها إلى رأس الكلام وجذره وهو الوعد بالتربية العظيمة بقوله: «لما وعد محمدًا بالتربية العظيمة بقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ وقوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ لا جرم كان يزداد كل يوم أمره، كأنه تعالى قال: يا محمد لم يضيق قلبك ؟ ألست حين لم تكن مبعوثًا لم أضيعك، بل نصرتك بالطير الأبابيل ؟ وفي أول الرسالة زدت فجعلت الطير ملائكة ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ﴾[آل عمران:١٢٤]. ثم الآن أزيد فأقول إني أكون ناصرًا لك بذاتي: ﴿إِذَا جَآءَ

(١) "التفسير" ١١/ ٣١٠.

﴿ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾. فقال: إلهي، إنما تتم النعمة إذا فتحت لي دار مولدي ومسكني، فقال: ﴿ وَٱلْفَتْحُ ﴾ فقال: إلهي، لكن القوم إذا خرجوا فإي لذة في ذلك؟ فقال: «﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ ثم كأنه قال: هل تعلم يا محمد بأي سبب وجدت هذه التشريفات الثلاثة؟ إنما وجدتها؛ لأنك قلت في السورة المتقدمة: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾.

وهي وإن كانت تجري في دلالة العطاء إلا أن توسط سورة ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ أضاف خصوصية زائدة للمناقب التي جاءت بها سورة «النصر» وضاعفت من كونها نعمًا ومناقب إلى جعلها متممات ومكملات لجميع النعم، فجاءت بأفضل التشريفات وأحبها على قلبه عليه الصلاة والسلام وهي فتح مكة وإعادة الإلف بينه وبين قومه بدخولهم في دين الله بعد أن نابذوه العداوة ونابذهم البراءة من شركهم.

فسورة «الكوثر» كالشريان الذي تلتقي عنده جزئيات المعاني ليصلها بقلب الدلالة ومركزها وهو سورة «الكافرون»؛ لأن جميع المناقب السابقة من قبيل التهيئة والتلطف لإلزامه بعد ذلك بالأمر الشاق؛ لذلك قدم «هذه السورة على سورة «قل يا أيها الكافرون» حتى يمكنه الاشتغال بذلك التكليف الشاق والإقدام على تكفيره جميع العالم، وإظهار البراءة عن معبودهم، فلما امتثلت أمري، فانظر كيف أنجزت لك الوعد، وأعطيتك كثرة الأتباع والأشياع، إن أهل الدنيا يدخلون في دين الله أفواجًا»[1].

وبعد أن بين وجه تعلقها بما قبلها فرع ما بعدها عليها فـ «لما قال في آخر السورة المتقدمة ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ فكأنه قال: إلهي، وما جزائي؟ فقال: نصر الله. فيقول: وما جزاء عمي حين دعاني إلى عبادة الأصنام؟ فقال: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ ﴾. فإن قيل: فلم بدأ بالوعد قبل الوعيد؟ قلنا: لوجوه، أحدها: لأن رحمته سبقت غضبه. والثاني: ليكون الجنس متصلًا بالجنس فإنه قال: ﴿ وَلِىَ دِينِ ﴾ وهو النصر كقوله: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ [آل عمران:١٠٦]. وثالثها: الوفاء بالوعد أهم في الكرم من

(١) "التفسير" ١١/ ٣١٠.

الوفاء بالانتقام، فتأمل في هذه المجانسات الحاصلة بين هذه السور مع أن هذه السورة من أواخر ما نزل بالمدينة وتلك السورة من أوائل ما نزل بمكة؛ ليعلم أن ترتيب هذه السور من الله وبأمره»[1].

وهذا الفهم يحكم بناء الكلام ويصوره بيانًا متفقًا يأخذ بعضه بحجزة بعض، فتجد السورة تداخل بيان سابقتها وتتولد من بعض عناصرها فتتسع وتتكاثر بدلالتها ثم تنشق عن بيان آخر تبنى عليه سورة أخرى فتداخل حلقات الكلام وتشتد أواصره ويفرغ إفراغًا واحدًا ثم يجعل سورة «إنا أعطيناك الكوثر» وما يحيط بها من سور داخلة في جملتها كلامًا واحدًا يقابل به منظومة من السور يجعلها قسيمًا للمعنى الأول فسورة «قل هو الله أحد» وهي في شرح صفات الله وما تفرع عنها من ذكر مخلوقاته في سورة «الفلق» ومراتب النفس الإنسانية وترقيها في معرفة الله، وكل هذا «في حق الله مثل سورة «الكوثر» في حق الرسول لكن الطعن في حق الرسول كان بسبب أنهم قالوا: إنه أبتر ولا ولد له، وههنا الطعن بسبب أنهم أثبتوا لله ولدًا، وذلك لأن عدم الولد في حق الإنسان عيب ووجود الولد عيب في حق الله تعالى، فلهذا السبب قال ههنا: ﴿قُلْ﴾ حتى تكون ذابًّا عني، وفي سورة «إنا أعطيناك» أنا أقول ذلك الكلام حتى أكون أنا ذابًّا عنك»[2].

وهذا ضرب لطيف من المقابلة قارب أطراف الكلام و جمع منه ما تشابه على تباعد مطارحه ومنازله، ودركه لا يكون إلا بزيادة فطنة وبصر بمداخل الكلام بعضه في بعض، وحسن التأتي بملاحظة اللغة وما وراء التراكيب من تنبيهات وتلوحيات تحيل إلى أشباه ونظائر لها، فتعيدها إلى الذهن وتنبه إلى ما بينهما من تآخٍ، فتتجاوب المعاني وتتلاقى؛ لتكون بيانًا مكتملًا لا يغني فيه جزء عن جزء، فسورة «الإخلاص» أمر من الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام بدفع مقالة من أثبت له سبحانه الولد، وهذا المعنى أعاد نظيره في سورة «الكوثر» في دفاع الله عن نبيه وتسليته حينما عاب عليه المشركون ألا ولد له، فانعطف آخر

(١) "التفسير" ١١/ ٣٣٥.

(٢) السابق ١١/ ٣٦٦.

الكلام على أوله، وكون من مجموع السور وتتابعها بهذا النسق والترتيب هيئة لمعنى كلي احتوى ما بعدها وانتظمه على اختلاف أغراضه فوحد ما تفرق وجعل منه بيانًا مكتملًا؛ لأنه - وإن تشعبت أفانينه- يلتقي عند غرض أصل ومعنى جذر يؤلف ذلك كله وينحو به منحى واضحًا ويؤم به مقصدًا محددًا.

وكانت هذه الصفحات موضع عناية العلماء بعده فاستوقفهم منهج تحليل الرازي لتتابع السور وتعليق بعضها ببعض فتبعه البقاعي في أكثر ذلك فقد علق «الإخلاص» بسورة «الكوثر» وجعل ما بينهما من سور مبنية ومركبة على «الكوثر»؛ لأن هذه السورة أثارت تساؤلات عما يفعله ﷺ مع الشانئين من معاركة أو متاركة فجاءت«الكافرون» إشباعًا لمعنى المشاركة والبراءة من دينهم «النصر» فرعت معنى المعاركة وما يترتب عليها من قهر الشانئ بالفعل، فلما نبهت «النصر» على التوبة على من آمن بعد الفتح أثارت تساؤلات حول حال من لم يؤمن فجاءت «تبت» لتفصل مالهم من الخذلان بذكر مصير أشقائهم فاستحضرت حال أشدهم عنادًا وأعتاهم في مواجهة دين الحق والاجتهاد في كل ما يضاد أشرف العباد مع قرابته للرسول عليه الصلاة والسلام فذكرت مصيره وماله من الخذلان والذل يوم المعاد [1]. إلا أنه لم يجعل «الإخلاص» معنى مقابلًا لـ«الكوثر» وإنما معنى أنتجته السور السابقة فقد أثارت في النفس تشوفًا واستشرافًا لمعرفة ما هية هذا المولى فـ «جاءت «الإخلاص» كاشفة لما ثبت من العظمة لولي النبي سبحانه وتعالى الذي أمره بهذا الدين وفعل له هذه الأمور العظيمة الموجبة.... لئلا يستبعد عليه سبحانه وتعالى شيئًا من ذلك » [2].

وامتد البقاعي بهذه الفكرة إلى ملاحظة التشابه في بناء المعاني من سورة «الفيل» إلى نهاية القرآن، وأن ذلك إعادة تشكيل لأصول المعاني الممتدة من «الفاتحة» إلى آية الكرسي، فعانق مقطع الكتاب مطلعه والتحم مفصله بموصله أشد التحام، يقول في ذلك «من أعظم المناسبات في ذلك بالنظر إلى الآيات أنه سبحانه شرح بـ«الفيل» وما بعدها من السور آيات

(١) ينظر: "نظم الدرر" ٨/ ٥٧٦.

(٢) "نظم الدرر" ٨/ ٥٨٦.

«الفاتحة» كلها ثم من أول «البقرة» إلى آية التوحيد، فأشار بـ«الفيل» إلى استجماعه لصفات الكمال بأن له الحمد بما حرس به بيته من الملوك وحماه من كيد الجبابرة، وأحسن التربية لقريش الذين هم أشراف العالمين وبصلاحهم صلاح بلدتهم أم القرى... فدل ذلك على أنه يدين العباد يوم التناد، ولذلك أعطى رأس الهداة الدين الذي أفرده بالعبادة والاستعانة بـ«الكوثر»، وهداه إلى الصراط المستقيم وأعاذه من طريق الكافرين المعاندين والضالين، وأشار أول «البقرة» إلى دخول المتقين – الذين الكتاب هدى لهم – في الدين أفواجًا، وإن أغنى أهل الكفر وأعتاهم سواء عليهم الإنذار وعدمه في أنه لا يؤمن وهو أبو لهب ومن سار بسيره من مجاهر ومساتر ويعمهم الخسار ويشملهم الهلاك والتبار بحكم الواحد القهار، المأمور بعبادته وتوحيده في الآية الجامعة لدعوات التوحيد ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ [البقرة:٢١]. المتصف بما في سورة «الصمد» التي لم ينزل في وصفه مثلها، فتم الدين عند ذلك بما له سبحانه من كمال الأوصاف وجلال النعوت بالجبروت والإلطاف، فلم يبق إلا تعويذ أهل الدين من أن يدخل عليهم خلل أو يلحقهم نزع أو زلل فختم بالمعوذتين لذلك »[1].

وردها الإمام السيوطي إلى سورة «الكافرون» لاشتمالها على غرض واحد وهو التوحيد، يقول: «إن هذه السورة أي «الإخلاص» متصلة بـ «قل يا أيها الكافرون» في المعنى، ولذلك من أسمائها «الإخلاص»، وقد قالوا: إنها اشتملت على التوحيد وهذه أيضًا اشتملت عليه...، وذلك أنه لما نفى عبادة ما يعبدون، صرح هنا بلازم ذلك وهو أن معبودهم واحد، وأقام الدليل عليه بأنه «صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد» ولا يستحق العبادة إلا من كان كذلك وليس في معبوداتهم من هو كذلك »[2].

وأحكم المتأخرون بعد الرازي هذا الباب بما لا مزيد عليه فقلبوا جهات التماسك بين السور المتتابعة، وفصلوا القول في وجوه انتساب كل سورة وموقعها في بيان ما قبلها وكيف تناسبت أغراضها وتناسجت من جمل وآيات هيأت لمقاصدها ومكنت لموقعها وحسن

(١) "نظم الدرر" ٨/ ٥٧٦ ، ٥٧٧.

(٢) "تناسق الدرر" ص ١٨٧.

تجاورها وانتظامها من السورة قبلها، ودلوا في ذلك كله على مداخل السورة في السورة في مقاصدها وأبنيتها ومكوناتها، ومجاذبة ذلك برد الكلام بعضه على بعض فتتعانق السور وتتلاقى عناصرها وتتلاقح فينمو المعنى ويتسع ويثمر في بيان السور التالية، ويظل ما بين أصله مجملًا وموقعه مفصلًا إيحاءات تحيل إليه وتحفز الذهن لإعماله في ذلك السياق ورده عليه. ثم تترك السورة في ثناياها بذورًا لمعنى آخر تجاذبه السورة بعدها وهكذا تنامٍ مستمر تتحرك السورة في أحشاء ما قبلها وتتناسل منها.

والأصل الضابط هو أن السورة تطوي في أبنيتها معاني مجملة تقتص السورة التالية آثارها فتنشرها وتبني عليها مقاصدها ذكره السيوطي في قوله: «إن القاعدة التي استقرأتها من القرآن: كل سورة تفصيل لإجمال ما قبلها، وشرح له، وإطناب لإيجازه، وقد استمر معنى ذلك في غالب سور القرآن طويلها وقصيرها»[1].

والإبانة بالمجمل داعية ومحرك للنفس على الاستفسار والطلب والتأمل فيتجاوز العبارة للكشف عن حقائقها المستترة بقرينة نص آخر يجاذب به دلالتها ويمتد بها نحو التفصيل والتفسير ؛ لذلك عول العلماء في بيان وجه تماسك السور والتحام بعضها ببعض على تتبع عناصر السورة السابقة ومكوناتها في تأليفها وما داخلها من الزيادة والتغيير، فلم يشكل استقلال السورة حاجزًا يعزلها عما جاورها أو يحول دون الالتفات إلى ما تحدر إليها من نظم سابقتها ومعانيها، فقد تأتي السورة بناء على آيات محدودة في بيان ما قبلها، كما في موقع «الأعراف» في سورة «الأنعام» فـ «سورة «الأنعام» لما كانت لبيان الخلق قال فيها: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾[الأنعام:٢]. وقال في بيان القرون: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ [الأنعام:٦]. وأشير فيها إلى ذكر المرسلين وتعداد كثير منهم، وكانت الأمور الثلاثة على وجه الإجمال لا التفصيل، ذكرت هذه السورة عقبها؛ لأنها مشتملة على شرح الأمور الثلاثة وتفصيلها فبسط فيها قصة خلق آدم أبلغ بسط بحيث لم تبسط في سورة ما بسطت فيها وذلك

(١) "تناسق الدرر" ص ٤١.

تفصيل إجمال قوله: ﴿ خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾. ثم فصلت قصص المرسلين وأممهم وكيف هلاكهم تفصيلًا تامًّا شافيًا مستوعبًا لم يقع نظيره في سورة غيرها، وذلك بسط حال القرون المهلكة ورسلهم، فكانت هذه السورة شرحًا لتلك الأمور الثلاثة.

وأيضًا فذلك تفصيل قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام:١٦٥]. ولهذا صدر السورة بخلق آدم الذي جعله الله في الأرض خليفة، وقال في قصة عاد: ﴿ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾[الأعراف:٦٩]. وفي قصة ثمود: ﴿ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ ﴾[الأعراف:٧٤][(١)].

ويقوي هذا الوجه ما لحظه الغرناطي من إحالة آي «الأنعام» إلى الاعتبار بالأمم السالفة وتكراره ولم يجر ذلك من قبل في السور السابقة لها فاقتضى وضعها عقيبها «لأنها بسط وإتباع لبعض عناصرها»[(٢)].

والسيوطي يجعل السياق متلاحمًا بتتبع لفظة الخلافة المتحدرة من تحت أغراض «الأنعام» التي جاءت لبيان الخلق وامتزاجها بذكر الأمم السالفة في «الأعراف».

وأحيانًا تقتص السورة المعاني المجملة في السورة قبلها فتزيدها إبانة وتفصيلًا حتى تكاد لا تغادر منها شيئًا، كما في منزلة «آل عمران» من «البقرة» «فإن أول «البقرة» افتتح بوصف الكتاب بأنه ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ وقيل في «آل عمران»: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾. وذلك بسط وإطناب لنفي الريب عنه.

ومنها: أنه ذكر في «البقرة» إنزال الكتاب مجملًا وقسمه هنا: إلى آيات محكمات ومتشابهات.. ومنها أنه أوجز في «البقرة» ذكر المقتولين في سبيل الله بقوله: ﴿ أَحْيَآءٌ ﴾ [البقرة:١٥٤]. وزاد هنا: ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾[آل عمران:١٦٩،١٧٠]. وذلك إطناب عظيم.

---

(١) "تناسق الدرر" ص٧٠،٧١.

(٢) ينظر: "البرهان" ص ٢١١.

ومنها: أنه قال في «البقرة»: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾[البقرة:٢٤٧] وقال هنا: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران:٢٦] فزاد إطنابًا وتفصيلًا.

ولم يكتف بملاحظة التشابه في المباني وتتبع كل لفظة انجرت في سياق «آل عمران» وما داخلها من زيادات، وإنما رد ذلك إلى تكامل مقاصدهما وترتب كل منهما على الآخر، ذكر: «أن بين هذه السورة وسورة «البقرة» اتحاد شديد وتلاحم متأكد؛ لما تقدم من أن «البقرة» بمنزلة إقامة الحجة، وهذه بمنزلة إزالة الشبهة، ولهذا تكرر ما يتعلق بالمقصود الذي هو بيان حقيقة الكتاب من إنزال الكتاب وتصديقه للكتب من قبله، والهدى إلى الصراط المستقيم»[1].

ونوع آخر من مواقع السور في السور تكون فيه السورة استدارة على مضامين ما قبلها تبرز ما دفن واستكن وتضمر ما ظهر منها وفصل، فتصبح السورة في قلب الأخرى و هذه روعة الإعجاز وتسامق بيانه وتشعب أفانينه في تصريف المعاني وتقليبها ظاهرًا وباطنًا نحو موقع أغراض «النساء» في «آل عمران» وما طوته من مفصلها وما نشرته من مجملها.

«ومنها: أنه لما قال في «آل عمران» في المتشابه: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عمران:٧] قال هنا: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء:١٦٢]. ومنها: أنه لما قال في «آل عمران»: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[آل عمران:١٤] فصل هذه الأشياء في السورة التي بعدها على نسق ما وقعت في الآية؛ ليعلم ما أحل من ذلك فيقتصر عليه وما حرم فلا يتعدى إليه لميل النفس إليه، ففصل في هذه السورة أحكام النساء.

ثم فصل فيها ذكر البنين أيضًا؛ لأنه لما أخبر بحب الناس لهم وكان من ذلك إيثارهم على البنات في الميراث وتخصيصهم به دونهن، تولى قسمة الميراث بنفسه، وقال: ﴿يُوصِيكُمُ

(١) "البرهان" ص ٥١

ﵟاللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِﵞ [النساء:١١]. فكان ذلك تفصيلًا لما يحل ويحرم من إيثار البنين اللازم عن الحب، وفي ضمن ذلك تفصيل لما يحل للذكور أخذه من الذهب والفضة وما يحرم»[1].

فهذه العناصر أجملت فصيرها التفصيل من كونها فروعًا إلى أغراض وقضايا تدور عليها مقاصد «النساء»، وبعض آيها طي وقبض لمقاطع من «آل عمران» اكتفي بالإشارة إليها فـ «سورة «آل عمران» ذكرت فيها قصة أحد مستوفاة، وذكر في هذه السورة ذيلها وهو قوله: ﵟفَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِﵞ [النساء:٨٨]. ومنها التي بعد أحد في قوله: ﵟالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُﵞ [آل عمران:١٧٢]. وأشير إليها هنا بقوله: ﵟوَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَﵞ [النساء:١٠٤]».

وكذلك القصص بين ثلاث سور هي: «مريم»، و«طه»، و«الأنبياء»، والمراوحة فيها بين القبض والبسط؛ رعاية لما ذكر منها في الأخرى وما طوي فـ «لما ذكر في سورة «مريم» قصص عدة من الأنبياء وهم: زكريا، ويحيى، وعيسى، والثلاثة مبسوطة، وإبراهيم وهي بين البسط والإيجاز، وموسى وهي موجزة مجملة، وأشار إلى بقية النبيين في الآية الأخيرة إجمالًا – ذكر في هذه السورة شرح قصة موسى التي أجملها هناك فاستوعبها غاية الاستيعاب، وبسطها أبلغ بسط.

ثم أشار إلى تفصيل قصة آدم الذي وقع في «مريم» مجرد ذكر اسمه هناك.

ثم أورد في سورة «الأنبياء» بقية قصص من لم يذكر قصته في «مريم»، كنوح، ولوط، وداود، وسليمان، وأيوب، واليسع، وذي الكفل، وذي النون.

وأشير فيها إلى قصة من ذكرت قصته إشارة وجيزة كموسى وهارون، وإسماعيل، وزكريا ومريم؛ لتكون السورتان كالمتقابلتين.

---

(١) "تناسق الدرر" السيوطي ص ٥٧-٥٩.

وبسطت فيها قصة إبراهيم البسط التام فيما يتعلق به مع قومه، ولم يذكر حاله مع أبيه إلا إشارة، كما أنه في سورة «مريم» ذكر حاله مع قومه إشارة، ومع أبيه مبسوطًا فانظر إلى عجيب هذا الأسلوب وبديع هذا الترتيب»[1]؟

أو تتفرع السورة من تحت بعض كلمات السورة السابقة أو جمل محدده فتعمل على تشكيل مقاطعها وتدير أغراضها فتتفرق وتتوزع ثم تعود لتجتمع عند الكلمة الأم كما في سورة «البقرة» حيث تأتلف أغراضها المتنوعة في مجموعات تتحدر إلى أصولها في «الفاتحة» وتصب في دلالتها فـ «قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قد أومأ إليه في قصة توبة آدم.. وفي قصة إبراهيم لما سأل الرزق للمؤمنين خاصة.. وما وقع من قصص بني إسرائيل.. وذكر آية الدين إرشادًا لعباده، ورحمة بهم ووضع عنهم الخطأ والنسيان والإصر.. وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مجمل شامل لجميع أبواب الشريعة الفروعية،.. وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تفصيله شامل لعلم الأخلاق، وقد ذكر منها في هذه السورة الجم الغفير من التوبة والصبر والشكر والرضى..وقوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ما وقع في السورة من ذكر سيرة الأنبياء، ومن خادعهم من اليهود والنصارى..»[2].

وسورة «يوسف» ترتد إلى أربع آيات في «هود» تتفرع عنها مقاطعها، وهي: «قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]. و قوله: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [هود:١١٥]. وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود:١١٨]. وقوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ [هود:١٢١]. فتدبر ذلك.

أما نسبتها للآية الأولى فإن ندم أخوة يوسف واعترافهم بخطأ فعلهم وفضل يوسف عليهم وعفوه عنهم ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يوسف:٩٢]. وندم امرأة العزيز وقولها:

---

(١)" تناسق الدرر" ص ٩٤،٩٥.

(٢)" تناسق الدرر" ص٤٢،٤٣.

﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[يوسف:٥١]. كل هذا من باب إذهاب الحسنة السيئة، وكأن ذلك مثال لما عرف المؤمنون من إذهاب الحسنة السيئة، وأما نسبة السورة لقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[هود:١١٥]. فإن هذا أمر منه سبحانه لنبيه عليه السلام بالصبر على قومه، فأتبع بحال يعقوب ويوسف عليهما السلام، وما كان من صبرهما مع طول المدة وتوالي امتحان يوسف عليه السلام بالجب ومفارقة الأب والسجن حتى خلصه الله أجمل خلاص بعد طول تلك المشقات.

ويوضح ما ذكرناه ختم السورة بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾[يوسف:١١٠]. فحاصل هذا كله الأمر بالصبر وحسن عاقبة أولياء الله فيه، وأما النسبة لقوله ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾. فلا أنسب لهذا ولا أعجب من حال إخوة فضلاء لأب واحد من أنبياء الله وصالحي عباده جرى بينهم من التشتت ما جعله الله عبرة لأولي الألباب، وأما النسبة لآية التهديد فبينة وكأن الكلام في قوة اعملوا على مكانتكم وانتظروا، فلن نصبر عليكم مدة صبر يعقوب ويوسف عليهما السلام وقد وضح بفضل الله وجه ورود هذه السورة عقب سورة «هود»، والله أعلم.[1]

وتتنوع العلاقات فتقع بعض السور موقعًا غير التفصيل فتجري مجرى التكميل لما قبلها، كما في سورة «الزمر» والتحامها بسورة «ص» حتى أنه «لو سقطت البسملة لالتأم الكلام كالآية الواحدة ولم يتنافر.

ثم إنه تعالى لما ذكر في آخر «ص» قصة خلق آدم ذكر في صدر هذه قصة خلق زوجه منه وخلق الناس كلهم منه، وذكر خلقهم في بطون أمهاتهم خلقًا من بعد خلق ثم ذكر بأنهم ميتون ثم ذكر وفاة النوم والموت ثم ذكر القيامة والحساب والجزاء والنار والجنة...

فذكر أحوال الخلق من المبتدأ إلى آخر المعاد متصلًا بالخلق المذكور في السورة التي قبلها».[2]

---

(١) "البرهان" الغرناطي ص ٢٢٩-٢٣١.

(٢) "تناسق الدرر" السيوطي ص ١١٧.

أو نكون في حكم الجملة المقابلة لأختها في التركيب الواحد فيراعى في ترتيبها الخصوصيات المرعية في أحوال الجمل الواحدة، كما في ترتيب أغراض سورة «الواقعة» وتنزيلها وفقًا لمنازل المعاني في سورة «الرحمن» ذكر ذلك السيوطي يقول: «وانظر إلى اتصال قوله هنا: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة:١] بقوله هناك: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ [الرحمن:٣٧]. ولهذا اقتصر في «الرحمن» على ذكر انشقاق السماء وفي «الواقعة» على ذكر رج الأرض، فكأن السورتين لتلازمهما واتحادهما سورة واحدة فذكر في كل شق، ولهذا عكس في الترتيب فذكر في أول هذه السورة ما ذكره في آخر تلك، وفي آخر هذه ما في أول تلك، كما أشرت إليه في سورة «آل عمران» مع «البقرة»، فافتتح في سورة «الرحمن» بذكر القرآن، ثم ذكر الشمس والقمر، ثم ذكر النبات، ثم خلق الإنسان والجان من مارج من نار، ثم صفة يوم القيامة، ثم صفة النار، ثم صفة الجنة وهذه ابتداؤها بذكر القيامة ثم صفة الجنة، ثم صفة النار، ثم خلق الإنسان ثم النبات، ثم الماء، ثم النار، ثم ذكر النجوم ولم يذكرها في «الرحمن» كما لم يذكر هنا الشمس والقمر ثم ذكر القرآن. فكانت هذه السورة كالمقابلة لتلك وكرد العجز على الصدر»[1].

وعلماء المناسبات لفتوا من خلال تفتيشهم فيما انجر من أغراض السورة السابقة وما استطال من بيانها في السورة المجاورة إلى وظيفة تلك الأغراض في تكوين مقاصدها وسياقها الخاص، فسورة «الأنبياء» لما افتتحت بقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ وتكرر فيها التهديد في مواضع منها: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾، ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾، ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾، ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، إلى ما تخلل هذه الآي من التهديد وتشديد الوعيد حتى لا تكاد تجد أمثال هذه الآي في الوعيد والإنذار بها في الساعة وما بعدها وما بين يديها في نظائر هذه السورة.. اتصل بذلك ما يناسبه من الإعلام بهول الساعة وعظيم أمرها فقال تعالى:

---

(١) "تناسق الدرر" ص١٢٩

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج: ١، ٢]. ثم أتبع ببسط الدلالات على البعث الأخير وإقامة البرهان»[1].

أي أن هناك معاني فرعية تلح وتصبح هاجسًا تتشوف النفس وتستشرف بيانه، فتأتي التالية إشباعًا للمعنى فيصبح مقصدًا تؤمه السورة.

وتتعقد العلاقة وتدق حينما تتشابك مجموع آيات لتنتج دلالة ومقصد السورة التالية فيتطلب الأمر يقظة شديدة وحسًا متقدًا يلامس الخيوط والوشائج، ويتتبع أصولها الغائرة في مقاطع السورة السابقة فهي لا تتعلق بآية أو معنى مجمل تفصله وإنما إيحاءات تتولد من تناسج آياتها وتنبسط على مساحة كبيرة وتظل تلح عليها حتى تمتد من ضمير تلك السورة؛ لتتحول إلى معنى صريح تقصده السورة التالية وتجليه في بيانها مثل ما ذكره الغرناطي في موقع سورة «يونس» عليه السلام من «التوبة»، يقول: «لما تضمنت سورة «براءة» قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ [التوبة:٤٠]. وقوله: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾[التوبة:٤٣]. وقوله: ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[التوبة:٦١]. وقوله: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[التوبة:١٢٨]. إلى آخر السورة، إلى ما تخلله أثناء آي هذه السورة الكريمة مما شهد لرسول الله ﷺ بتخصيصه بمزايا السبق والقرب والاختصاص والملاطفة في الخطاب، ووصفه بالرأفة والرحمة، هذا مع ما انطوت عليه هي والأنفال من قهره أعداءه وتأييده ونصره عليهم وظهور دينه وعلو دعوته وإعلاء لكلمته، إلى غير هذا من نعم الله سبحانه عليه، كان ذلك كله مظنة لتعجب المرتاب وتوقف الشاك ومثيرًا لتحرك ساكن الحسد من العدو لعظيم ما منحه عليه السلام، قال تعالى في هذه السورة: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾[يونس:٢]. ثم

(١) "البرهان" الغرناطي ص ٢٥٦.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾[يونس:٣]. فبين انفراده تعالى بالربوبية والخلق والاختراع والتدبير، فكيف تعترض أفعاله أو يطلع البشر على وجه الحكمة في كل ما يفعله ويبديه»[١].

على أن هذه المعاني والأغراض المتحدرة من أبنية السورة السابقة لم تأت عفوًا وإنما قصد إليها وروعي فيها خصوصيات لغوية تتسق بها المباني وتنتظم فتحكم الربط وتبني المعنى على المعنى، فسورة «الرحمن» ارتدت على آيات «القمر» ففصلت مجملها على الترتيب الوارد في الإجمال، فبدأ بوصف مرارة الساعة، والإشارة إلى إذهابها ثم وصف النار وأهلها، ولذا قال: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الرحمن:٤١]. فلم يقل: الكافرون أو نحوه لاتصاله بقوله هناك: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[القمر:٤٧]. ثم وصف الجنة وأهلها وكذا قال فيهم: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦].وذلك هو عين التقوى، ولذلك لم يقل: ولمن آمن أو أطاع، أو نحوه؛ لتتوافق الألفاظ في التفصيل والمفصل، وعرف بذلك أن هذه السورة بأسرها شرح لآخر السورة التي قبلها»[٢].

وتأمل قوله: «لتتوافق الألفاظ في التفصيل والمفصل» وما فيها من التنبيه على القصد، وأن السورة بناء على نسق ما قبلها، ويهيئ لذلك اختيار ألفاظ مكنت لموقعها في بيان ما قبلها ونسجتها في نسيجها.

وسورة «المؤمنون» لما كانت تفصيلًا لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩﴾ [الحج:٧٧]. رتبت عليها وعلقت بها فأحدث ذلك تغيرات في النظم للوصول فألفت بين السورتين وجعلتهما أشبه بالسياق الواحد ذكر ذلك الغرناطي في قوله: «وللتحام الكلامين أورد الأول أمرًا والثاني في مدحه وتعريفًا بما به كمال الحال، وكأنه لما أمر المؤمنين وأطمع بالفلاح جزاء لامتثاله كان مظنة لسؤاله عن تفصيل ما أمر به من العباد وفعل الخير الذي به يكمل فلاحه فقيل له: المفلح من التزم بكذا.. »[٣].

---

(١) "البرهان" الغرناطي ص٢٢١،٢٢٢.

(٢)"تناسق الدرر" السيوطي ص ١٢٨.

(٣) "البرهان " ص ٢٥٧ ،٢٥٨.

وكذلك سورة «الملك» لما افتتحت بتبارك مكنت لحضور السياقات السابقة؛ لأن التنزيه لا يأتي إلا متصلًا بأمر سابق وعقيب إيراد عجائب ودفع شبهات يقول: «ورود ما افتتحت بهذه السورة من التنزيه وصفات التعالي إنما يكون عقيب تفصيل وإيراد عجائب من صنعه سبحانه»[1].

وحرصهم على الوحدة وتماسك النظام بين السورتين لا يلغي خصوصية كل سورة ومقاصدها بل نبهوا على ما يدخل البناء اللغوي من ألفاظ تحول مسار السياق وتشق مجرى لمقاصد جديدة تضيفها السورة التالية على مقاصد ما قبلها. مثل ما جاء في «البقرة» ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة:٤]. مجملًا، وقال هنا: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣، ٤]. مفصلًا وصرح بذكر «الإنجيل» هنا ؛ لأن السورة خطاب للنصارى، ولم يقع التصريح به في سورة «البقرة» بطولها، وإنما صرح فيها بذكر «التوراة» خاصة؛ لأنها خطاب لليهود»[2].

فقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ﴾ امتدت من مقاصد «البقرة»؛ لتعانق بين السورتين ثم نبذ فيها بلفظة «الإنجيل» تهيئة للخطاب مع النصارى وإعلامًا بمقاصد السورة.

وسورة «النحل» قررت وعيد المستهزئين المذكورين في آخر سورة «الحجر» في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢]. و«أعقب هذا ببيان تعجيل الأمر فقال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]. وزاد هذا بيانًا قوله سبحانه وتعالى: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فنزه نفسه عما فاهوا به في استهزائهم وشركهم وعظيم بهتهم وأتبع ذلك تنبيها وتعظيمًا فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل:٣] ثم أتبع ذلك بذكر ابتداء خلق الإنسان»[3].

---

(١) "البرهان" ص ٣٤١.

(٢) "تناسق الدرر" السيوطي ص ٤٨، ٤٩.

(٣) "البرهان" الغرناطي ص ٢٤٢.

فقوله: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ قناة فتحت مجرى لآيات التنزيه وكانت مدارًا لأغراض السورة، والتنزيه استلزم تقريرًا لألوهية ودلائل صنعه فانجر الكلام إلى ذكر خلق السماوات والأرض وابتداء خلق الإنسان ، ثم ألقى في سياق الخلق وصفًا أحال إلى مقاصد سابقتها وأحكم لحمة السياقين بقوله: ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾[النحل:٤]. وهذا الوصف استدار بفصول سورة «النحل» إلى أجواء آيات و عيد المستهزئين في سورة «الحجر» وصب في بيانها و نمى معانيها وإن اتخذ هيئة أخرى و مسلكًا مختلفًا في صورة عرض الدلائل إلا أنه يجاذب المقاصد السابقة وينقل مضامينها ويعالج ما فيها من دخل، وقد نبه الغرناطي على أن عرض الدلائل منزل على تلك المقاصد واقع فيها فجاء «بذكر ابتداء خلق الإنسان وضعف جبلته ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ ﴾[النحل:٤]. ثم أبلغه تعالى حدًّا يكون فيه الخصام والمحاجة، وأعقب هذا بذكر بعض ألطافه سبحانه في خلق الأنعام وما جعل فيها من المنافع المختلفة، وما هو سبحانه عليه من الرأفة والرحمة اللتين بهما أخر العقوبة عن مستوجبها، وهدى من لم يستحق الهداية بذاته بل كل هداية فبرأفة الخالق ورحمته، ثم أعقب ما ذكره بعد من خلق الخيل والبغال والحمير وما في ذلك كله بقوله ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[النحل:٩].فبين أن كل الواقع من هداية وضلال خلقه وفعله وإنه وجد الكل من واحد وابتدأهم ابتداء واحدًا ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ فلا بعد في اختلاف غاياتهم بعد ذلك»[1].

أي هي فذلكة لذلك الوعيد منحته أجواء السورة تأنيًا وسمتًا هادئًا أشاعته جملة: ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾.

ولما تشابهت «الأحقاف» مع «الجاثية» نبه المطلع على ذلك التشابه وقرره بقوله: ﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[الأحقاف:٣]. ثم شعب غرضًا خاصًّا وفتح قناته بزيادة لفظة «الأجل» ذكر ذلك البقاعي في قوله: «ولما ثبت في «الجاثية» مضمون قوله تعالى في «الدخان»: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾بما ذكر

(١) " البرهان " ٢٤٢، ٢٤٣

فيهما من الآيات والمنافع والحكم، أثبت هنا مضمون ما بعد ذلك بزيادة الأجل... ولما كان من المقاصد هنا الرد على المجوس وغيرهم ممن ثبت خلقًا لغير الله قال: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾»[1].

أو تتكاثر آيات معينة تلح على مضمون كلي يكون مدارًا لآياتها مع ندرة حضورها فيما سبقه من السور فيكون ذلك بمثابة منارة تهدي إلى القصد وتنبه المخاطب وتحفزه لتتبع خصوصية تلك الآيات مثل ما جرى في سورة «الشورى» وتحديد مقصدها من تلاحق آيات أحكمت وصلها بمقاصد سورتي «غافر» و«السجدة»، يقول: «لما تضمنت سورة «غافر» ما تقدم من بيان حال المعاندين والجاحدين، وأعقبت سورة «السجدة» بيانًا أن حال كفار العرب في ذلك كحال من تقدمهم، وإيضاحًا لآيات الكتاب العزيز وعظيم برهانه، ومع ذلك فلم يجد على من قضى عليه تعالى بالكفر، أتبعت السورتان بما اشتملت عليه سورة «الشورى» من أن ذلك كله إنما جرى على ما سبق في علمه تعالى بحكم المشيئة الأزلية: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾[الشورى:٧] ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾[الشورى:٦]. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الشورى:٨] ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ [الشورى:١٤] ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾[الشورى:١٥] ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:٢١] ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٢٩] ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى:٣١] ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾[الشورى:٤٦] ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾[الشورى:٤٨] ﴿نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[الشورى:٥٢].

فتأمل هذه الآي وما التحم بها مما لم يجر في السورة المتقدمة منه إلا النادر ومحكم ما استجره وبناء هذه السورة على ذلك ومدار آيها - يلح لك وجه اتصالها بما قبلها والتحامها بما جاورها»[2].

ولما كان غاية علماء المناسبات البحث في العناصر المؤثرة في تكوين مقصد السورة لم يقصروا النظر على الوشائج الناظمة للسورتين المتعاقبتين كتشابه الافتتاح أو تعلق مطلع

---

(١) "نظم الدرر" ٧/ ١١٥.

(٢) "البرهان" الغرناطي ص٢٩٨، ٢٩٩ يقصد بـ «السجدة» هنا سورة «فصلت».

السورة بمقطع ما قبلها، وإنما تتبعوا منابع المعاني في أصول السور البعيدة وما انساب منها في بيان تلك السورة وهذا يتطلب لطف وبصيرة في تصنيف المعاني أصولها وفروعها ورد كل فرع إلى أصله ثم القبض على نقطة التقاء الأصول عند معنى جامع يؤلف ما اختلف ويصيره بيانًا متفقًا ومقصدًا مكتملًا، هذا المعنى هو مناط نظرهم فيه تتبين منازل ورتب السور بعضها من بعض وسبب أن قدمت تلك وأخرت الأخرى وتوسطت الثالثة، نحو موقع «الأنعام» فيما تقدمها من السور فهي «بأسرها متعلقة بـ«الفاتحة» من وجه كونها شارحة لإجمال ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وبـ«البقرة» من حيث كونها شرحًا لإجمال قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[البقرة:٢١]. وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]. وبـ«آل عمران» من جهة تفصيلها لقوله: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ [آل عمران:١٤]. وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[آل عمران:١٨٥].

وبـ«النساء» من جهة ما فيها من بدء الخلق والتقبيح لما حرموه على أزواجهم، وقتل البنات بالوأد. وبـ«المائدة» من حيث اشتمالها على الأطعمة بأنواعها»[1].

فتتبع أغراض «الأنعام» في السور الخمس المتقدمة وجاذب نظائرها في تلك السورة ومدى صلتها بالمقصد الأم، فـ«البقرة» التقت معها في معنى أصل وهو ذكر الخلق وتضمن ذكر الخلق معنى الملك، ثم توزعت السور بعدها مضامين «البقرة» وانحدر إليها هذان الأصلان: فـ«آل عمران» جرى فيها أمر الخالق فذكر: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ و«النساء» عالجت خلق الإنسان وما يتعلق به و«المائدة» جاءت بما يتعلق بالطيبات من الأطعمة وغيرها. فلما تفرقت تلك الأصناف تطلبت مقصدًا جامعًا يعانق بين أصلي الملك والخلق ويعيد تأليفها، فقصدت «الأنعام» ذلك وهيأ لذلك وضعها بعد سورة «المائدة» لتضمنها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧]. وقوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]. وأخبر فيها عن

(١) "تناسق الدرر" السيوطي ص ٦٧، ٦٨.

تحريم الكفار لأشياء افتراء على الله للتشنيع عليهم ولتحذير المؤمنين أن يحرموا ما أحل الله [1] فـ «الإذن فيها.. مسبب عما ثبت له من الفلق والتفرد بالخلق، وتضمن باقي ذكرها إبطال ما اتخذوه من أمرها دينًا؛ لأنه لم يأذن فيه، ولا أذن لأحد معه ؛ لأنه المتوحد بالإلهية، لا شريك له، وحصر المحرمات من المطاعم التي هي جلها في هذا الدين وغيره، فدل ذلك على إحاطة علمه»[2].

لذلك لم يحسن تقديمها بعد «الفاتحة» رغم أن جميع معانيها متحدرة من تحت لفظ «رب العالمين» وقدمت «البقرة» مع أن التعبدات والأحكام متأخرة عن أمر الخالق لفائدة وأصل بياني من رعاية الأهم «بالإشارة إلى مصالح الدين والآخرة مقدمة على مصالح المعاش والدنيا، ولأن المقصود من الخلق إنما هو العبادة فقدم ما هو الأهم في نظر الشرع»[3].

أو يتأخر ترتيبها عن الأصل الذي تفرعت عنه لتصعيد المعنى، فتمهد له السورة ثم تتلاحق السور بعدها تحمل شياته وأحواله فتضمنه إيحاء دون التصريح فتتنامى تلك الإيماضات وتتصاعد من عمق التراكيب ليتمخض عنها مقصد تؤمه السورة، كما في معنى المبالغة في توبيخ المشركين وزجرهم الذي دارت عليه آي «القمر» ونموه من سورة «ص»، ذكر ذلك الغرناطي في قوله: «أعلمهم سبحانه بقرب ذلك وحسابه؛ ليزدجر من وفقه للازدجار، فقال تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾[القمر:١]. ثم إن سورة «ص» تضمنت من عناد المشركين وسوء حالهم وتوبيخهم في عبادتهم ما لا يضر ولا ينفع ما لا يكاد يوجد في غيرها مما تقدمها.

و انبنت السور بعد على تمهيد ما تضمنته سورة «ص» فلم تخل سورة منها من توبيخهم وتقريعهم، كقوله في «الزمر»: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا

(١) "تناسق الدرر" السيوطي ص٦٦،٦٧.

(٢) "نظم الدرر" البقاعي ٢/ ٥٧٨.

(٣) "تناسق الدرر" السيوطي ص٦٦.

لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾[الزمر:٣]. وقوله في سورة «غافر»: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ [غافر:٤].... إلى ما تخلل هذه الآي، كقوله: ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [فصلت:٤].وقوله في «الشورى»: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾[الشورى:٦]. إلى ما تردد في هذه السورة مما قرعوا به أشد التقريع، وتكرر في آيات كثيرة فتأملها، وقوله في «الدخان»: ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ إلى قوله :﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ [الدخان:٩-١٦]. وقوله في «الشريعة» : ﴿ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ [الجاثية:٦-١١]. وقوله في «الأحقاف»: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأحقاف:٣]. ومعظم آي هذه السورة لم يخرج عن هذا إلى خاتمتها...

وكذا سورة «الحجرات» لتضمنه من الأمر بتعزيز النبي ﷺ وإجلاله ما يقر عين المؤمن ويقتل العدو الحاسد، وما فيها أيضًا من ائتلاف أمر المؤمنين وجمع كلمتهم وتآخيهم وموقع هذا من العدو بحيث لا يخفى على أحد، وأما سورة «الذاريات»، و «الطور »، و «النجم »، فما تضمنته مما ذكرناه قبل أوضح شيء، وبذلك افتتحت كل سورة منها، فتأمل مطالعها، ففي ذلك كفاية في الغرض، فلما انتهى ما قصد من تقريع مكذبي رسول الله ﷺ وبلغت الآي في هذه السور من ذلك أقصى غاية وتمحض باطلهم وانقطع دابرهم ولم يجدوا جوابًا، عرض عليهم سبحانه في سورة «القمر» أحوال الأمم مع أنبيائهم وكان القصد (من ذلك) -والله أعلم- مجرد التعريف بأنهم ذكروا فكذبوا فأخذوا ليتبين لهؤلاء ألا فرق بينهم وبين غيرهم وألا يغرهم عظيم حلمه سبحانه عنهم، فهذه السورة إعذار عند تبكيتهم وانقطاع حجتهم بما تقدم، وبعد أن انتهى الأمر في وعظهم وتنبيههم بكل آية إلى غاية يعجز عنها البشر، لهذا افتتح سبحانه هذه السورة بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾. وختمها بقوله: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ وهذا ما قدمناه وكأن قد قيل: أي فرق بينكم وبين من تقدم حتى ترتكبوا

مرتكبهم وتظنون أنكم ستفوزون بعظيم جرأتكم، فذكر سبحانه لهم قصة كل أمة وهلاكها عند تكذيبها بأعظم إيجاز، وأجزل إيراد، وأفحم عبارة، وألطف إشارة »[1].

وهنا يوظف الغرناطي مسلك الاقتصاص ليكشف عن مغزى السورة من خلال انعكاسات المعنى في مواقع متفرقة، وحقيقة هذا المسلك «أن يكون الكلام في سورة مقرونًا بلام الذكر، فيقتص العالم ذلك من كلام آخر ما في تلك السورة وأول ما في سورة أخرى »[2].

فاللام في قوله: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ لفَّت سياقات متباعدة ونسجتها في نسيج السورة فداخلت أغراضها وانغلت في تراكيبها وجعلتها جزءًا من بنائها حتى أصبح تحديد المقصد في غياب تلك المواقع لا ينهض بدلالة كاملة.

فلام الذكر ولا مذكور سابق في التراكيب حفز الذهن للخروج إلى دائرة منفصلة وسياقات خارجة باقتصاص آثار المعنى في السورة السابقة ورحلته في قلب الأبنية الممتدة؛ ليمد الإجمال ويحركه نحو التفصيل المنتج للسياق الخاص لسورة «القمر» فتعدت الدلالة أسوار السورة؛ لتعانق نظائرها في الكتاب؛ لتثير نصوصًا متعددة ذابت في بنائها واختلطت بأغراضها فانبعثت فيها إشعاعات لمقاصد أخرى أشرقت بها تقلبات المعنى ومراحله في السياقات السابقة من بدء كونه إبلاغًا متلطفًا مرغبًا إلى إنذار مرهب إلى مرحلة التقريع حتى انتهى إلى التبكيت وقطع الحجة. فمعنى التبكيت لا يأتي مجردًا عن تلك المقدمات، وتفسير قوله: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾[القمر:٤] على أنها تقريع إجهاض للدلالة وإخلال بمقاصد المتكلم من حيث أبان؛ لأن وضع اللام ولا عائد هو تأسيس لمعنى مطوي رفعت عليه دعائم السورة.

وقد تقدم السورة؛ لأنها مكملة لما قبلها ثم تعلق السورة بعدها بالسورة الأم وتبنى عليها، كما في سورة «تبارك» ناسب مطلعها مقطع «التحريم» وتعلقت مضامينها بسورة

(١) "البرهان" ص ٢١٩-٢٢٢.

(٢) "تيسير البيان" ١/ ١٥٨.

«الطلاق» فجاءت موصولة بقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق:١٢]. فزاد ذلك بسطًا في هذه بقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾[الملك:٣-٥]. «وإنما فصلت بسورة «التحريم»؛ لأنها كالقطعة من سورة «الطلاق» والتتمة لها»[١].

وسورة «مريم» أصل تفرعت عنه «طه» و«الأنبياء» ومكن لموقعها قوله: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم: ٩٨].

فـ «استدعت هذه الجملة بسط حال فابتدئت بتأنيسه ﷺ وتسليته حتى لا يشق عليه لددهم، فتضمنت سورة «طه» من هذا الغرض بشارته بقوله: ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾[طه: ٢] . وتأنيسه بقصة موسى ﷺ وما كان من حال بني إسرائيل وانتهاء أمر فرعون ومكابدة موسى ﷺ لدد فرعون ومرتكبه إلى أن وقصه الله وأهلكه وأورث عباده أرضهم وديارهم ثم أتبعت بقصة آدم ﷺ؛ ليرى نبيه ﷺ سننه في عباده حتى أن آدم ﷺ وإن لم يكن امتحانه بذريته ولا مكابدته من أبناء جنسه فقد كابد من إبليس ما قصه الله في كتابه، وكل هذا تأنيس للنبي ﷺ فإنه إذا تقرر لديه أنها سنة الله تعالى في عباده هان عليه لدد قريش ومكابدتهم ثم ابتدأت سورة «الأنبياء» ببقية هذا التأنيس فبين اقتراب الحساب ووقع يوم الفصل المحمود فيه ثمرة ما كوبد في ذات الله والمتمنى فيه أن لو كان ذلك أكثر والمشقة أصعب لجليل الثمرة وجليل الجزاء، ثم أتبع سبحانه ذلك بعظات ودلائل وبسط آيات، وأعلم أنه سبحانه قد سبقت سنته فأهلك من لم يكن منه الإيمان من متقدمي القرون وسالفي الأمم ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا ﴾[الأنبياء:٦]. وفي قوله: ﴿ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ تعزية لرسول الله ﷺ في أمر قريش ومن قبيل ما الكلام بسبيله»[٢].

---

(١) " تناسق الدرر " السيوطي ص١٤١ .

(٢) "البرهان" الغرناطي ص٢٥٤ ، ٢٥٥ .

فالآية سكنت فيها دلالات متزاحمة ما بين الإنذار والتأنيس فتحلقت السورتان حولها لتغذيتها وبسط لوازمها ومقتضياتها فانسل من أغراضها البشارة له ﷺ الذي تضمنته سورة «طه» مع تأنيسه بالقصص لتقرير أنها سنة الله في عباده، فإذا علم ذلك هان عليه إعراض قومه وشقاقهم فلما تم ذلك الغرض حارت سورة «الأنبياء» على أصل الكلام لتزيد جهة أخرى في التأنيس فأسس لمعنى آخر بذكر مكابدته ﷺ فانساق الكلام لبيان يوم الحساب وانجر إلى العظات والدلائل ثم تثني الكلام وتعطف عليه منبعه فأعاد المعنى بقوله: ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ . فعانق بين الفرع وأصله وطوى بذلك الأغراض المختلفة داخل السورتين وجمعها في عنق الآية وهذا أشبه بما يحدثه رد الأعجاز على الصدور في أحكام التماسك بين الشطرين.

وقد تقع السورة موقع الجملة المعترضة بين متصلين كما هو حال سورة «الحشر» وتوسطها بين غرض واحد توزعته سورة «المجادلة» و«الممتحنة»، فسورة «الممتحنة»: «افتتحت بوصية المؤمنين على ترك موالاة أعدائهم ونهيهم عن ذلك، وأمرهم بالتبري منهم وهو المعنى الوارد في قوله خاتمة «المجادلة»: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة:٢٢]. وقد حصل منها أن أسنى أحوال أهل الإيمان، وأعلى مناصبهم ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ فوصى عباده في افتتاح «الممتحنة» بالتنزه عن موالاة الأعداء ووعظهم بقصة إبراهيم والذين معه في تبرئهم من قومهم ومعاداتهم والاتصال في هذا بين، وكأن سورة «الحشر» وردت مورد الاعتراض المقصود بها تمهيد الكلام وتنبيه السامع على ما به تمام الفائدة لما ذكر أن شأن المؤمنين أنهم لا يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا أقرب الناس إليهم، اعترض بتنزيهه عن مرتكباتهم، ثم أتبع ذلك ما عجله لهم من النقمة والنكال، ثم عاد الأمر إلى النهي عن موالاة الأعداء جملة»[1].

(١) "البرهان" الغرناطي ص ٣٣٣ .

فـ«الممتحنة» وإن رجعت غرض «المجادلة» إلا أن تنزيلها بعد «الحشر» هيأ المعنى بهيئة أخرى وزاد فيه فائدة ماكانت لولا ذلك التوسط الذي جاء بتنزيه الله عن اعتدائهم وعصيانهم ونقمته عليهم، فلما كانت التبرئة تتعلق بأولي القربى والنفوس تجد مشقة في ذلك مهد للأمر بذكر ما من شأنه إزالة هذه المشقة بذكر أفعالهم وعصيانهم حتى إذا استبشعته النفوس واستقبحته مكن لصريح الأمر.

وتأمل حال المعنى قبل مجيء سورة «الحشر» وصورته بعد التحامه به، وكيف جسرت لانتقال المعنى من الخبر والوصية إلى الإلزام والتأكيد، وكذلك يكون حال الجمل الاعتراضية «تشبه في الكلام الثمرة الكريمة التي تسقط فور نضجها لا تبالي في أي موقع سقطت، ولو أن المتكلم هيأ لها مكانًا غير الاعتراض لما التفت السامع إليها إلا بقدر ما يلتفت لغيرها من الجمل»[1].

(١) "المراجعات" دكتور محمد أبو موسى ص ١٢٧ .